نظرة من الغربال

اسم العمل : نظرة من الغربال

النوع : رواية

تأليف : زينب مبارك

تصميم الغلاف : أحمد الملواني

إخراج داخلي : عبدالقادر فايز

الطباعة : اتيليه تاتش – المحروسة

الناشر : الدار للنشر والتوزيع

المدير العام : محمد صلاح مراد

تليفون : ٠١١٢٥٨٠٠٤٦٧

البريد الإلكتروني : eddar_press@yahoo.com

فيس بوك : www.facebook.com/eldarpublish

رقم الإيداع : ٢٠١٦/٢٦٩٥٤

التـرقيم الدولي : I.S.B.N.: 978-977-702-172 -2

نظرة من الغربال

رواية

زينب مبارك

الدار
للنشر والتوزيع

٢٠١٦

الإهـــداء

إلى زوجي الذي يؤمن بي أكثر من إيماني بنفسي

إلى ابنتي التي أتعلم منها بقدر ما تتعلم مني

إلى زوج إبنتي الذي يشاركني آلام ونعمة الإبداع

إلى أبي الذي بث فيّ الكتابة دون أن يقصد ذلك

ففتح لي متنفس روحي

١

سنية نزيلة في عنبر ٣٩ في قسم النسا في مستشفى الأمراض العقلية بالعباسية. ما تعرفش بقالها قد إيه هناك و لا حد يعرف جت إزاي.

سنية بقالها في نفس العنبر و على نفس السرير ٢٢ سنة، يعني أكثر من نص عمرها.

يمكن لو شفناها في الشارع أو السوق حنفتكرها شابة عادية خارجة بتعمل مشوار. شعرها إسود طويل له تجاعيد مكسرة و دايما ملموم لورا و بعدين نازل سارح على ضهرها، و شها أسمر قمحي و مناخيرها رفيعة و حادة شوية، و شفايفها دايما مفتوحة حبة كإنها حتقول حاجة لازم نسمعها. لكن في الحقيقة هي ما بتقولش حاجة أبدا.

سنية عينيها سهتانة، هادية ما بتركزش علي حاجة أكثر من ثواني قليلة، و يمكن هي الحاجة الوحيدة اللي ممكن تفضحها وسط الناس في الشارع أو السوق. عينيها بتبص للحاجة بس ما بتشوفهاش، عينين سنية شايفة عالم ثاني، ماحدش يعرفه غيرها. عالم هي اختارته، أو يمكن هو اللي اختارها، المهم إن الاثنين بقوا سوا من ٢٢ سنة هنا. سنية و عالمها المجهول.

بقيت الستات في العنبر كلهم غيرها. فيه بيعيطوا و فيه ساكتين، و فيه بيضحكوا و فيه ساهيانين، بس مش زي سنية.

كل يوم الصبح تدخل نجاة و تهاني و معاهم تعيين الدوا. كل واحدة من ستات عنبر ٣٩ لها نصيب، و كل واحدة بتبلع نصيبها حسب ما الأحوال تحكم، ساعات بالذوق و ساعات بالعافية، و ساعات بالحقنة. و سنية بتبلع الحباية زي شربة المايه، زي نَفَس الصبح اللي انت عارف إنك مستنيه، و إن من غيره اليوم حيبقى مالوش صبح.

قربت نجاة من سنية و معاها الحباية و شوية المايه.

«إفتحي بقك"

سمعت سنية الأمر و نفذته و قبل ما تتدور نجاة كان العنبر إتملا صريخ وزعيق و زغاريط.

النصيب النهاردة كان بالضرب. أم مجدي اللي شايلة على كتفها مخدة بترضعها و تهننها بعد ما خنقت إبنها الصغير، رمت تهاني على الأرض و رقدت فوقها تخنقها عشان تهاني مش راضية تدي إبنها الدوا.

العنبر إتلم عليهم و الكل عاوز يشوف روح تهاني و هي بتطلع، وجريت نجاة علي الباب تنده سعد و سليمان اللي بيعرفوا يزغروا الزغرة ترجع بيها كل واحدة مكانها و يسكت العنبر و ونسوانه.

سنية هي الوحيدة اللي ما اتحركتش، قرفصت على سريرها و سدت ودانها بإيديها و قعدت تتهز لقدام و لورا، و هي بتئن. الأنين هو الكلام الوحيد اللي سنية بتتكلمه لما يفيض بيها الكيل.

دخل سعد و سليمان العنبر و خدوا أم مجدي معاهم و عرفت سنية من غير ما تعرف إزاي عرفت إن أم مجدي حتغيب شوية و ترجع ساكتة و هادية، و مش حتسأل على ابنها.

٢

دلف الدكتور وليد إلى الطرقة الرئيسية و هو يلعن ذلك المنبه الذي لم يرن ليوقظه في الوقت المعهود. فها هو قد تأخر على موعد رئيس المستشفى الذي كان يهوى الاستهزاء به لا لشيء سوى لأنه أصغر طبيب في المستشفى و قد عين رغما عنه مسلحا بدرجة الامتياز التي حصل عليها مؤخرا.

فالدكتور ناجي من الرعيل الأول لأطباء الأمراض النفسية و العقلية، و لا يجد مشكلة في استخدام الأساليب العتيقة التقليدية التي طالما نجحت أو حتى فشلت في علاج المرضى، فما جدوى تلك النظريات الحديثة و الاجتهادات المختلفة التي يأتي بها بين الحين و الآخر متطلع لشهرة أو راغب في تقدير؟ ما أحوج الشباب أن ينهلوا من خبرة الرعيل السابق، ليتعلموا بدلا من أن يضيعوا الوقت و المجهود فيما لا طائل منه.

أسرع وليد الخطوة و هو يرتدى معطفه الأبيض في عجل و انعطف لليسار عابرا من أمام الغرفة المخصصة لجلسات الكهرباء فاصطدم بسعد و سليمان و أم مجدي التي حاولت على الفور أن تعضه.

«إيه ده؟ فيه إيه؟!»

«الدكتور ناجي أمر لها بجلسة كهربا"

قطب وليد جبينه و نظر إليها ولم يتكلم، فأم مجدي ليست من حالاته، و لذلك فلا سبيل للإدلاء برأي في علاجها و إن كانت جلسات الكهرباء هي إحدى الوسائل العديدة التي يتمنى لو أنها لم يعد لها وجود في المستشفى.

صرخت أم مجدي معترضة و كأنها قرأت أفكاره و وافقته عليها، فانتبه وليد، و تركها آسفا لمصيرها و أسرع في اتجاه مكتب الدكتور ناجي.

دخل إلى الغرفة فصدمته من جديد مثل كل يوم آخر دخلها فيه. فالغرفة كالحة اللون بها شباك وحيد على اليمين، شيشه مغلق منذ سنوات، و قد احتلته الأتربة وعفن السنين و بجواره تقف جاكيت الدكتور ناجي معلقة على شماعة خشبية سوداء قد تعطي من يدخل الغرفة مسرعا الإيحاء بأن الدكتور بنفسه واقف و وجهه للحائط أو هكذا يتخيله وليد دائما بينما ناجي في الواقع دائما ما يكون جالسا إلى مكتبه في المواجهة يدون ملاحظات أو يمضي على أوراق دخول أو خروج مرضى من المستشفى.

التقطت عينا وليد لمحة للبساط الملقى أمام مكتب ناجي و الذي كان دائما ما يذكره بزحام ميدان العباسية، فألوانه تجمع بين الأحمر والبني والأخضر في تشابك غير متناسق و لاذع، وخطوط تصاميمها متناحرة و متضادة، في تعبير سافر على سوء ذوق صاحب الغرفة الطبيب الأستاذ المعالج.

تنفس وليد بعمق يعينه على ما سيأتي و قال:

«صباح الخير يا دكتور"

«متأخر يا دكتور"

دخل وليد إلى الغرفة و وقف على البساط المقيت و هو يحاول الابتسام معتذرا.

«أنا آسف يا دكتور، الميدان كان واقف"

رفع ناجي رأسه إليه و نظر من فوق نظارته إلى وليد متفحصا محاولا أن يجد شيئا آخر يؤنبه عليه، فلما لم يجد، أمره أن يجلس و بدأ في فحص ملفات أخرى أمامه و هو يمد شفتيه للأمام زاما إياها في اعتراض على ما يقرأه.

«إيه بقى حكاية المزيكا دي يا سي وليد؟ حنقلبها كباريه و اللا إيه؟"

ها هو إذن الموضوع، الموسيقى التي يستخدمها وليد في محاولة جديدة للوصول إلى خبايا نفس مرضاه.

«يا دكتور جلسة الموسيقى مش بتاخد أكثر من ربع ساعة، و بتساعدني في تهدئة الحالات و بعدين...»

لم يترك له الدكتور ناجي المزيد من الوقت للشرح و إنما أصدر أوامره الصارمة أن كل ذلك لا جدوى منه، فالحالات يسيطر عليها بعد ذلك رقص و مجون و هياج غير مقبول، ولابد من إيقاف جلسات الموسيقى والاكتفاء بالطرق التقليدية المعتمدة في العلاج و التي لا خطر منها.

حاول وليد الاعتراض بأن بعض الحالات لا تستجيب للعلاج التقليدي، مثل حالة درية التي تخشى الخروج من العنبر حتى للحمام، و حالة منى التي ترى في كل الرجال عطية زوج أمها الذي اغتصبها و دافعت أمها عنه، فقتلتهما منى حرقا.

و حين لم يأت النقاش بجديد خرج وليد من الغرفة تاركا لونها الكالح و شيشها المغلق و صاحبها ذا الوجه المكتئب و أسرع إلى حديقة المستشفى كي ينفض عنه بعض ما علق به من اليأس الذي صار نصيبه من عطايا الدكتور ناجي اليومية.

٣

سنية قاعدة على سريرها بتبص على اللي في العنبر، كل واحدة لونها غير الثانية. من زمان وسنية بتتفرج على الناس وهم مش واخدين بالهم. فيه ناس حواليهم لون أزرق، وناس حواليهم لون أحمر، وناس حواليهم لون برتقاني. اللون بيبقى زي نور مرسوم حوالين الواحد، يتحرك معاه. لو مشي يمشي، لو قعد يقعد و لو نام ينام، زي ما يكون لابسه و مغطي الهوا اللي حواليه. الناس اللي حواليهم لون أحمر دايما بيتخانقوا بصوت عالي، سنية ما بتحبهمش و لا بتحب تبصلهم، و اللي حواليهم لون أزرق بيتكلموا قليل، كل لون له صنف، وسنية بتتفرج عليهم كلهم من غير ما تقول حاجة.

وساعات بتشوف ألوان لوحدها طايرة في الهوا مش عارفة رايحة على فين، و لا الناس بتاعتها فين. عشان كده سنية في حالها، ما بتحبش تخرج من العنبر، و لا حتى تروح جنينة المستشفى زي ما ساعات بيطلعوهم. الجنينة فيها ناس كثير و الألوان بتبقى كثير زحمة، دوشة، بتتعب سنية. مرة شافت ٣ أولاد صغيرين في الجنينة معاهم واحدة ست. الولاد كانوا كلهم لون واحد، لون أبيض شفاف بيلمع. قعدت سنية تبص عليهم و لأول مرة حست إنها عاوزة تقربلهم و تلمس اللون الأبيض، بس طبعا ما اتحركتش من

مكانها. ساعات لما أم مجدي بيتصرخ أو عطيات بتغني و هي بتقلع هدومها في العنبر، سنية بتغمض عينيها و تفكر في الثلاث ولاد و لونهم الأبيض. ساعتها مش بتسمع أم مجدي و لا عطيات و لا حتى سعد و سليمان و هم بيشتموهم. الدنيا بتسكت خالص، كإن باب إتقفل بينها و بين اللي في العنبر. سنية بتحب اللون الأبيض قوي.

٤

تنفس وليد نفسا عميقا و أغمض عينيه و حاول أن يعيد إلي نفسه الهدوء الذي سطا عليه الدكتور ناجي عنوة.

و حين أحس بأنفاسه تهدأ و تستقر، فتح عينيه و نظر في اتجاه المستشفى فطالعه عنبر ٣٩ نساء بحوائطه الصفراء و شقوق سنينه المحفورة كتجاعيد وجوه الكثير من نزيلاته. ثم إستقرت عيناه على وجه سنية الجالسة بعفوية على سريرها بجوار الشباك العتيق المحصن بحديد أسود مجدول.

كان وليد قد رآها عدة مرات أثناء مروره مع الدكتور ناجي و غيره من كبار أطباء المستشفى، لكنه لم يفحص ملفها من قبل. كل ما كان يعرفه عنها أنها قلما تبرح مكانها على السرير، وأنها لا تتكلم أبدا علي الرغم من عدم وجود أي عيب خلقي أو عضوي يمنعها من ذلك.

إقترب من الشباك بضع خطوات و دقق النظر في وجهها و بعد برهة إلتفتت سنية إليه و لكنها لم تره، أو لم تنظر إليه صراحة، و إنما جال نظرها من حوله للحظة ثم استدارت دون أن يستقر على وجهه و عادت إلي جلستها الأولى. تحرك اهتمام وليد و حسه

الطبي بسنية و حالتها، و أسرع إلي داخل المستشفى و قد قرر أن يعرف قدر ما يستطيع عنها و أن يطلب أن يضمها إلي مرضاه.

دخل إلى مكتب أرشيف المستشفى و وجد الأستاذ حلمي الموظف المسئول عن الملفات يلقن مساعده الجديد أصول الحفظ.

«الحالات الجديدة تترتب أبجديا في الرف الفوقاني و التحتاني. الرف اللي في النص للحالات اللي بقالها ٥ سنين أو أقل. الملفات اللي فوق الدولاب للحالات اللي في العشر سنين اللي فاتت. واضح؟"

هز المساعد رأسه و إن كان لم يبد عليه أنه تابع ما يقال، فعيناه كانتا على سهير الجالسة أمام الكمبيوتر تدق أزراره بأصابعها ذات الأظافر البرتقالية.

«أما الدولاب ده، فده فيه البن و السكر بتاعي. ممنوع حد يحط إيده عليه. البن ده باجيبه مخصوص من شبين الكوم مرتين في السنة، و حاسبه تلقيمة تلقيمة، يعني اللي ينقص منه حاقفشه على طول. واضح؟"

ضحكت سهير فضحك مساعده الجديد و كاد حلمي ينفجر فيهما إلا أن تدخل الدكتور وليد في الوقت المناسب حال دون ذلك.

«صباح الخير، أنا بادور على ملف حالة في عنبر ٣٩ سيدات.»

«أنهي حالة؟"

«سنية"

رفع حلمي أنفه لأعلى في حركة عصبية و دفع نظارته للخلف بضعة سنتيمترات و هو يتذكر سنية.

«آه، دي في الدوسيهات اللي في الحفظ بالتقادم، اللي بقالها أكثر من ١٠ سنين.»

إلتفت حلمي إلى مساعده ليكمل التعريف بأصول المهنة شارحا أن تلك الملفات في مكان مخصوص لحفظها وعدم خلطها بما هو أحدث.

«شوف عندك تحت الدولاب اللي شمال الباب"

أسرع الفتى و انبطح أرضا و أخرج عشرات الملفات المكدسة تحت الخزانة، و وليد ينظر إليها بعجب. فذلك إذن هو مصير

الحـالات التـي إئتمنـوا عليهـا، وهكـذا تنتهـي حـالات المرضـى المعذبين بهـواجس و خيـالات تفرض عليهم وجـودا يعـزلهم عـن الحياة الطبيعية.

نظر وليد إلى حلمي متسائلا عن كيفية إعتبار هذه الوسيلة حفظا لأسرار المرضى و تفاصيل حالاتهم، فلم يعبأ حلمي كثيرا بتأنيب الضمير.

»الحـالات الجديـدة أولـى، و المكـان مـش مسـاع. حضـرتك مـش يهمك حالتك يا دكتور؟ حتلاقيها في الحفظ و الصون.«

نظـر وليـد إلـى عشـرات الملفـات الملقـاه علـى الأرض و بـدأ فـي فحصها في تأن.

وبعد بضـعة دقائق، ظهـر لـه ملـف سنية مـن بينهـا. وجد إسمها وحيـدا علـى غلافـه المعـدوم اللـون. «سـنية...» و كأنمـا إنمحـت شخصيتها ما إن دخلت إلى المستشفى.

قبض وليد علـى الملف بقوة و خـرج مـن الغرفـة مسـرعا قبـل أن يطلب منه حلمي أن يوقع باستلامه. فاهتمامه بحالة سنية مبادرة

شخصية قد لا يوافق عليها الدكتور ناجي حارس المدرسة العتيقة في العلاج النفسي.

٥

قضي وليد باقي اليوم متحاملا على نفسه محاولا التركيز على مهامه و إن كان كل ما يشغل باله هو ملف سنية و حالتها الفريدة من نوعها. وما إن أنهي ورديته حتى أخرج الملف من تحت الأوراق والملفات الأخرى التي في درج مكتبه، وأسرع إلى سيارته خارجا بها وبغنيمته خارج أسوار المستشفى.

من فرحته بما أنجز و شغفه على قراءة الملف، فكر أن يقف في أحد الشوارع الهادئة في طريقه إلى البيت ليبدأ في قراءته، و لكنه في النهاية فضل أن يقاوم تلك الرغبة المتسرعة و أقنع نفسه بأن الملف و حالة سنية تستحق منه تركيزا لا يشتته ضجيج الشارع و لا القراءة المتسرعة.

عادت إلى ذهنه صورة سنية الجالسة في الشباك تنظر نحوه و لا تراه. فما الذي تراه فعلا؟ جميع الحالات الأخرى التي عاينها و تابعها كانت واضحة و مفهومة. فأصحابها يبدون أعراضا تدخل في نطاق ما درسه و تعلمه ثم ما مارسه كطبيب في الخمس سنوات الماضية. أما سنية، فحالتها مازالت كالصندوق المغلق الذي لا يملك مفاتيحه سواها.

نظر وليد إلى الملف و شعر أنه ربما توافق سنية أن تسلمه تلك المفاتيح.

أخيرا وصل وليد إلى بيته و توقف بسيارته في أول بقعة فارغة وجدها، حتي و إن كانت على منعطف الشارع مما يوقعها تحت خطر أي متحذلق طائش ربما يسيئ تقدير المسافات و يطيح بسلامتها عرض الحائط، و لكن كل صبر وليد كان قد نفد و لم يدر بنفسه وهو يلتهم الدرجات للدور الرابع حيث شقته، و يصل إلى بابها ثم يدخلها ويلقي بحقيبته على أول مقعد يجده و يلقي بجسده على المقعد المجاور و يفتح الملف بأصابع متلهفة كحبيب وجد أخيرا ضالته في جسد حبيبته التي أهداها له القدر بعد طول اشتياق.

سنية:

تاريخ الدخول: ٢٢ فبراير ١٩٩٠

السن: ١٨ سنة تقريبا

الحالة: كتاتونيا

الحالة الاجتماعية: غير معروف

معلومات عن الأقارب: غير معروف

تاريخ الحالة:

وجدت سنية في أحد شوارع مصر الجديدة مرتدية فستانا من القطن، حافية القدمين. كانت تبدو عليها علامات الشرود و لم تستطع أن تدلي باسمها أو سكنها و لم توجد معها أي متعلقات شخصية كما ورد في محضر الشرطة.

اتضح من الكشف الطبي عليها أنه لا يوجد سبب مرضي يعيق السمع أو الكلام و أن حالة الصمت التي تعاني منها المريضة على ما يبدو إختيارية. ليس بها آثار إعتداء جسدي و لم يتطابق وصفها مع أي من المفقودين المبلغ عنهم في أقسام الشرطة.

١/٣/١٩٩٠

لم يطرأ أي تغيير على الحالة و إن كانت المريضة إكتسبت هدوءا نفسيا و بدأت في تناول الطعام مرة واحدة في اليوم بعد أن كانت تشرب السوائل فقط.

٧/٣/١٩٩٠

تصفح وليد أوراق الملف كلها و التي لم تتعد ١٠ صفحات في ما يزيد عن ٢٠ سنة، و تعجب أن معظم الصفحات كانت بها نفس العبارة تقريبا.

«الحالة مستقرة لم يطرأ أي تغيير"

و كانت المتابعة تتم كل ستة أشهر، ثم مرة واحدة في السنة في العشر سنوات الأخيرة. شرد وليد للحظة و هو يفكر كيف يدخل إلى ألم سنية. إن عليه أولا أن يحصل على موافقة دكتور ناجي. قطب وليد جبينه وأحس أنه قد وصل إلى حائط من العناد، فترك الملف و خرج إلى الصالة باحثا في الثلاجة عن بعض الماء ليبل به ريقه الذي جف من مجرد التفكير في ناجي. ثم انحرف يسارا إلي المطبخ و مد يده إلى الخزانة ليعد لنفسه فنجانا من القهوة كما علمته أمه الحاجة. إبتسم حين تذكرها و تذكر صينية القهوة النحاسية و الكنكة و السبرتاية و علبتي البن و السكر.

"الله يرحمك يا أمي"

أتى إليه صوت أمه يطمئنه و يهدهده حين كان يتعجل في سن الرابعة عشرة أن يرى في وجهه علامات الشارب ليصير رجلا مثل أقرانه، فجاءته كلماتها الواثقة تخبره أن "كل شيء بأوان".

وردد وليد لنفسه و هو يرفع فنجان القهوة إلي شفتيه

«كل شيء بأوان". ثم تسمرت يده للحظة و وضع الفنجان على المائدة و عاد إلى الملف يفحص آخر ورقة فيه، فوجد أن تاريخ آخر متابعة لسنية كان منذ أكثر من عام. إبتسم وليد فرحا. لقد آن أوان المتابعة السنوية لسنية، فمن هو الطبيب المعالج؟ بحث في الأوراق فلم يجد أي إمضاء للطبيب في السبع سنوات الماضية. عاد إليه الأمل في أن يطلب من ناجي أن يقوم هو بالمتابعة السنوية الاعتيادية حتى يتم أوراق الملف بشكل روتيني غير منقوص.

عاد إلى فنجان قهوته و ابتسم مرة أخرى و أغمض عينيه، فجاءت إليه صورة وجه أمه البشوش الحبيب إلى قلبه.

«الله يرحمك يا أمي".

٦

فتحت نجاة باب العنبر و بصت لسنية و ندهتها بصوت عالي. بس سنية ما ردتش و لا اتدورت حتى. كانت قاعدة مقرفصة على سريرها باصة قدامها و كإنها تمثال مش بني آدم.

«ربنا يتوب علينا من وجع القلب ده!»

قفلت نجاة الباب وراها و جت شدت سنية من إيدها و نزلتها من على السرير.

«ياللا ياختي، الدكتور آل عاوز يشوفك"

زغردت واحدة من نسوان العنبر و بعدين الثانية و في ثواني كان العنبر بقى زفة لسنية عشان رايحة تقابل الدكتور. ماعدا درية اللي قعدت تصرخ و تقول "مش خارجة، مش خارجة! الدور جاي علي؟؟ الدور جاي علي؟؟"

اتدورت سنية و بصت للعنبر، لقت الألوان كلها دخلت في بعض، و طلعت فيه ألوان كثير ثانية أول مرة تشوفها، بس قبل ما تفهمها كلها قفلت نجاة الباب و جرتها من إيدها على أوضة في آخر الطرقة و فتحت الباب و زقتها جوة.

سنية ما رفعتش عينها من على الأرض و لا فكرت تقعد، و فضلت واقفة مكانها مش عارفة مستنية إيه. حتى صوت العنبر و الزغاريط و زعيق سليمان خلص و الدنيا كلها سكتت. و بعدين سمعت صوت بيقولها..

«أقعدي يا سنية. أقعدي ع الكرسي"

ما اتحركتش، عشان ماعرفتش تعمل اللي هو بيقول عليه. ماهي عمرها ما جت هنا و لا قعدت على الكرسي ده قبل كده. قرب منها صاحب الصوت لحد ما شافت رجليه قريبة من رجليها، واقفين قصاد بعض. شدها من إيدها لحد الكرسي و قالها تقعد، ماعرفتش تقول لأ، فقعدت.

مد إيده و صب شوية ماية من إزازة بلاستك في كباية.

«تشربي ماية؟"

فكرت شوية و مدت إيدها للكباية و رفعتها لشفايفها و بدئت تشرب. ساعتها رفعت وشها شوية فشافت صاحب الصوت. ما كانش شبه نجاة و لا تهاني و لا سليمان و لا سعيد.

وشه حواليه لون أبيض شفاف بيلمع زي التلاث ولاد اللي شافتهم في الجنينة مرة.

حطت سنية كباية الماية قدامها ، رفعت إيدها بشويش و دخلتها بالراحة في اللون الأبيض، لحد ما لمست وشه. بصلها في عينيها وابتسم.

٧

فرح وليد بمجرد تواصل سنية معه بهذه الحركة البسيطة و تفاءل بأنه من الممكن أن يدخل إلى عالمها الصامت المطبق.

نظر إليها طويلا و لكنه وجدها وقد أسدلت عينيها من جديد إلى كوب الماء و أخذت ترشف منه في نهم. تعجب بعض الشيء لأنه من الواضح أن سنية لا تتفاعل مع أي من تفاصيل الحياة و لا تنفعل و لا تفرح أو تحزن. إنما تعيش في حالة مستمرة من الشرود و التيه النفسي العاطفي، ما عدا هذه اللحظة التي بدأت تشرب فيها الماء.

فما سر الماء في حياة سنية؟

تحرك وليد إلي جهاز التسجيل الذي بجوار المكتب و ضغط على أحد أزراره فانبعثت منه موسيقى هادئة ذات سمات غربية. نظر إلى سنية التي لم يطرأ عليها أي رد فعل و كأنها لم تسمعها. دون وليد ذلك في ورقة جديدة، ثم بدل الموسيقى بأخرى أكثر صخبا و حيوية. لم تبد سنية إهتماما بذلك التغيير، فبدلها وليد للمرة الثالثة بموسيقى شرقية راقصة.

نظر وليد إلى سنية علـه يجد مـا يـوحي بـأي انفعال أو رد فعل، لكنها بقيت كما هي، صامتة هادئة، و كأنها في مكان آخر لا صلة له بما يجري في الغرفة. إمتعض وليد بعض الشيء و أحس بخيبة أمل. فطالما كانت للموسيقى تأثيرا على مرضاه، سواء بالسلب أو بالإيجاب. فبعضهم كان يكرهها و يطالبه بإيقافها، أو قد يبكي البعض الآخر، و لكنه في جميع الأحوال كان يجد في الموسيقى وسيلة جيدة للدخول إلى عوالم مرضاه المختلفة و نقطة بداية على طريق العلاج.

اللا سنية.

جلس وليد يدون ملاحظاته في ورق سنية الجديد، ثم ما لبث أن رفع رأسه لينظر إليها ففوجئ بها و قد تحركت من ثباتها الذي كانت عليه منذ دخولها الغرفة.

٨

سنية ماسكة الكباية بإيدها الشمال و باصة فيها كويس، و بعد شوية رفعت إيدها اليمين و نزلت صباعها جوة الميّة، و لما اتبل كله رفعته لوشها وقعدت ترسم بالمبيية خط على أورتها. إبتدت من نص الجبهة للناحية اليمين و بعدين من نص الجبهة للناحية الشمال.

بلت صباعها مرة ثانية و مشيت بيه على خدها اليمين و بعدين على خدها الشمال من فوق لتحت. و أخيرا بلت صباعها و مشيت على جفنها اليمين و بعدين على جفنها الشمال.

بصلها وليد و هي بتعمل كده و سألها:

«بتعملي إيه يا سنية؟"

سنية ما ردتش، عشان باين بتعمل إيه، بتحط صباعها في المبيية و بتبل بيها وشها.

بلت سنية صباعها مرة كمان و مشيت بيه على دراعها الشمال. بصت لدراعها اليمين للحظة و نقلت الكباية لإيدها اليمين بالراحة و على مهلها و بلت صباع من إيدها الشمال و ملست بيه على دراعها اليمين و كإن اللي بتعمله أهم حاجة في الدنيا.

٩

كان وليد يتابع ما تفعله سنية بالماء في دهشة. إنه أول رد فعل يراه منها، و إن كانت لاتزال رهينة عالمها الخاص. إلا أنها تواصلت مع شيء خارجه، شيء أعطاه إياها وليد.

فكر كيف يستغل ذلك العامل، و أسرع إلى شرائطه و اسطوانات موسيقاه، ثم اختار إحداها و وضعها في الجهاز.

«الميية تروي العطشان و تطفي نار الحران...»

إنطلق صوت عبد الوهاب بسلاسة يملأ الغرفة و يسري إلى سنية و وليد يتساءل بينه و بين نفسه إن كانت ستتفاعل مع الكلمة كما تفاعلت مع الماء نفسه.

حبس وليد أنفاسه حتى يلحظ أي رد فعل على سنية، و لكن في تلك اللحظة نفسها، فتح باب الغرفة و انفجر داخلها الدكتور ناجي بغضبه المعتاد وضيق أفقه الكريه.

«أنا مش قلت بلاش الكباريه اللي انت فاتحه في المستشفى ده؟ و إيه اللي جاب دي هنا؟"

١٠

سنية سمعت الزعيق و إيدها ارتعشت و سابت الكباية عشان تقفل ودانها و تبعد الصوت العالي واللون الأحمر اللي بتكرهه.

غمضت عينيها ما شافتش الكباية بتنكسر و المية بتتدلق. كان كل همها إنها تبعد عن الدوشة و عن اللون الأحمر اللي بدأ يملأ الأوضة.

إتنفض جسمها كله و خدت خطوة و هي مغمضة عاوزة تهرب، رجلها داست على حاجة حامية وجعتها، فتحت بقها عشان تصرخ، ما طلعش غير صوت الأنين اللي ماعندهاش غيره، مالت بجسمها لقدام بتهرب من الوجع و الزعيق و اللون اللي بيتكرهه، وقعت على الأرض و حست بحاجة بتنغزها في بطنها، و قبل ما تحاول تصرخ، الدنيا ضلمت.

١١

سنية مغمضة عينيها لكن شايفة الألوان. اللون الأحمر كان أول لون شافته، جاي مع الصوت العالي اللي حواليها. ناس بتزعق و ناس بتتكلم في نفس واحد وصوت حاجة زي الصفارة كانت كل ما تسمعها اللون الأحمر يزيد. و في وسط اللون ده شافت نقطة بيضا بتلمع زي اللأبيض اللي بتحبه. فتحت عينيها بالراحة شوية صغيرة، لقت وش الراجل اللي كان بيكلمها و إداها مية تشربها. اللون الأبيض كان لسه حواليه، بس ما كانش بيلمع زي الأول، كان مطفي شوية. كان شكله زعلان، مكشر و بيتكلم مع ناس ثانية كلام مافهمتوش.

غمضت سنية عينيها ثاني، و حست بإيده فوق قورتها. كانت إيده ساقعة بس ما ضايقتهاش. أصل سنية ما بتحبش الدفا و لا السخونية، بتخاف منهم.

***

نظر وليد إلى سنية وهي ملقاة في عربة الإسعاف مغمضة العينين، شاحبة اللون. رفع يده و وضعها على جبينها يتحسسها. خيل إليه أن وجهها استرخى حين لامس كفه، إلا أنه إستبعد ذلك، فهي غائبة عن الوعي بسبب ما فقدته من الدماء.

أشاح بوجهه عنها و شرد بخياله متسائلا إن كان ما حدث في مصلحته و مصلحتها.

قد يكون في خروجها من مستشفى العباسية إلى مكان آخر فرصة للدخول إلى عالمها الخاص بعيدا عن تدخلات ناجي و تعنته، و سمح وليد لنفسه ببعض التفاؤل و ابتسم رغما عنه و نظر إلى وجه سنية المسجاة أمامه مضرجة في دمائها.

"ما تخافيش يا سنية، أنا مش حاسيبك"

١٢

في عنبر المستشفى رقدت سنية على سريرها الجديد و من حولها زملاء في شقاء المرض. كل منهن تتأوه بآلام تخصها تنزوي فيها عن خضم الحياة اليومية التي أتت بهن إلى راحة منها، وسط معاناة بطعم آخر، بينما تتحرك بينهن الممرضات على مضض، كارهات ساعات العمل الطويلة، و مريضاتهن البائسات الفقيرات، و الزائرين عديمي الجدوى الذين لا يكادون يجدون قوت يومهم، ولا فائض لديهم للجود به على الممرضات.

كان العنبر يضج بالأصوات المتزاحمة من تأوهات المريضات إلى صراخ الممرضات، أحيانا فيهن و أحيانا أخرى لفرض نوع من السيطرة تعفيهن من المسئولية و المساءلة. فهؤلاء البائسات لا حق لهن في التأوه، ألسن في المستشفى؟ ماذا يردن أكثر من ذلك؟

دخل وليد ليلقي نظرة على سنية في موطنها الجديد.

لاكته الأعين و هو يأخذ خطواته الشابة الرشيقة وسط سوق الالام المهملة.

"أنا دكتور وليد صبري"

«صباح الخير يا دكتور، أي خدمة؟"

«بادوور على سنية المريضة اللي دخلت إمبارح"

«آه، المجنونة؟ هناك أهه، المربوطة في السرير"

دقت الممرضة بكاحليها الأرض في ثقل و هي تلقي بأردافها يمينا ويسارا واثقة من تأثير رقصتها المبتذلة على الطبيب الشاب.

أشاح وليد بنظرته عنهما هربا من الابتذال المطروح في السوق، و الذي سبقه نوع من الدنو حين نطقت الممرضة بلفظ "المجنونة"

وصلا إلى مكان سنية القابعة في سكون على فراشها، وكان أول ما لفت نظر وليد جدائل الشاش التي صلبت بها سنية على السرير.

«إيه ده!؟"

«ما أنا قلت لحضرتك يا دكتور، رابطينها عشان ما تهربش، ماهي مجنونة!"

«بس! مش عاوز أسمع الكلمة دي ثاني"

«ليه يا دكتور؟ ماهي متحولة من مستشفى....»

«خلاص! ياللا اتفضلي"

مصمصت الممرضة شفتيها و استدارت مبتعدة بعد أن ضنت عليه بإعادة لرقصة الأرداف و قد أدركت أنه لن يتفاعل معها، مقتنعة من داخلها أنه و لا شك "مالوش في الصنف".

نظر وليد إلى سنية و هي مستلقية على ظهرها مستسلمة لما هي فيه.

جلس إلى جانبها في هدوء ناظرا إليها محاولا فك طلاسم تعابير وجهها و عينيها المحدقتين في اللا شيء.

مد يده بحذر و بدأ في فك وثاق يدها اليمنى و دهش حين إنتهى، من أثر الوثاق على رسغها. غضب بشدة و لعن في سره صمتها، وبدا في تدليك يدها لإعادة سريان الدماء فيه، ثم انتقل إلى اليد اليسرى وفك رباطها و أعاد تدليكها ليختفي ذلك الخط الأزرق المشوب بالحمرة الذي يخنق الحياة في كفها.

و بعد بضع لحظات رفعت سنية يدها اليمنى إلى وجهها فأحس وليد بذلك و نظر إليها تاركا مهمة تدليك يدها الأخرى لثوان.

رفعت سنية يدها اليمنى إلى عينيها و التقطت دمعة هربت رغما عنها إلى العالم الخارجي. و انسابت لتعلن عن شقائها أو ربما عن ارتياحها.

لملمت سنية تلك الدمعة الوحيدة و هبطت بها إلى شفتيها.

إنتفض وليد مناديا في العنبر كي تأتيه إحدى الممرضات اللاتي هجرنه ببعض الماء. تهادت إحداهن إليه بزجاجة تقطر ماء على الأرض و تناولها وليد مرغما و اقترب بها من فم سنية.

١٣

سنية باصة في السقف اللي لونه كان أبيض زمان، بس لوقتي بقى لونه مالوش إسم.

إيديها كانت واجعاها، بس الولد أبو نور أبيض حواليه شال الوجع. حست سنية بحاجة مبللولة نازلة على وشها، إفتكرت ساعتها إنها عطشانة. خدت نقطة المية و حطتها على شفتها، بس النقطة ما كفيتش، راحت قبل ما تشربها.

بعد شوية لقت مية على بقها و فتحته عشان تشرب. المية كانت حلوة و شربت سنية، شربت و ارتاحت. سمعت صوت الولد أبو نور أبيض، إستغربت إنه لما كان صوته عالي النور ما بقاش أحمر، فضل أبيض برده. غمضت سنية عينيها و نامت.

١٤

عـاد وليـد إلـى بيتـه القـابع فـي سـكون منتظـرا خطواتــه. كــان يشــعر حــين يــدخل إلــى تلــك المساحة أن البيت و كل جنباته ينتظره ليلقي إليه وليـد بهمومـه، كأنمـا يشـكو لأحبائـه الـذين تركـوا المكـان ببقايـا نسماتهم.

فكر أن يتناول بعض الطعام متذكرا تنبيهات أمـه لـه حين كـان يعود غارقا في العمل و تفاصيله

« يـا بنـي هو انـت حتعيش علـى الهوا؟ كل لقمـة و بعدين كمل شغل"

فأجاب كما كان يفعل دائما "حاضر يا ماما، اكل عشان خاطرك"

أخرج طبقا من بقايا العشاء و وضعه في المايكرويف ليسخنها، و بعد بضع دقائق معدودة أخرجها و جلس أمام التليفزيون يلقمها دون أن يلقي لها الكثير من الاهتمام.

كان تفكيره كله منصبا على سنية و لغزها الذي يشعر أنه اقترب من أول خيط فيه.

لا شك أن للماء وقعا خاصا في حياتها، ترى ما هو؟ إنتهى وليد من طعامه و أشعل سيجارة و فرد جسمه على الأريكة لكي يريح عضلاته المشدودة. لم يدر متى انسل إليه النوم و لكنه فوجئ بأخيه هادي أمامه متربعا على كرسي وثير.

إبتسم وليد و لم يدهش لوجود هادي على الرغم من علمه في الحلم أن هادي قد مات إلا أنه تقبل وجوده ببساطة.

«إيه يا عم، مالك متنكد كده؟"

«مش عارف يا هادي، عاوز أمسكها و اخرج بيها برة، بس خايف"

«ما تخافش، هي مش قالتلك عطشانة؟ خلاص خدها على البحر الأزرق"

فتح وليد عينيه و قد انتهى الحلم فجأة كما بدأ، و انسابت إليه اليقظة دون أن يتوقعها. تنهد وليد و هو يحاول أن يتذكر ما قاله هادي. كان يشعر أن الحلم به شيء هام، و أن هادي جاء ليهديه إلى طريق إلى سنية.

«خدها على البحر الأزرق". ماذا تعني تلك الجملة، و أين هو البحر الأزرق!

قام وليد من مكانه و قد أعياه التفكير، إلا أنه شعر أن الطريق إلى سنية قد بدأ يتكون أمامه، و صمم على المضي فيه. فوصوله إلى أغوارها رغبة ملحة سيطرت على وليد، وكان فيه شفاء له هو شخصيا من أوجاع كان يظن أنها انتهت.

١٥

في سنوات مضت تعلم وليد أن يصحو من نومه في يوم الجمعة الأول من كل شهر ليرتدي ملابسه وينزل إلى محل الخردوات القريب من منزله ليشتري بما ادخره كله ريسوس و ملبس أحمر، ويعود بسرعة ليجد والدته وأخاه الأكبر كريم و أخاه الأصغر هادي وقد إستعدوا لمشوار كل شهر.

كانت والدته تقضي الوقت كله وهم في التاكسي تنبه عليهم أن يحسنوا التصرف و أن يبتسموا في وجه أبيهم، فهو ينتظر تلك الزيارة كل شهر لتعينه على ما هو فيه. و حين يصلون إلى أسوار مستشفى العباسية يشيح وليد وجهه عن سائق التاكسي الذي كان دوما، على اختلافه في كل مرة، ينظر إليهم بإشفاق و أحيانا ببعض الامتعاض.

فوالدهم كما عرفوا منذ سنوات، نزيل في تلك المستشفى بسبب إصابته بمرض لم يحفظ وليد اسمه، ولكنه حاول بسببه الانتحار أمامهم، و كان مصيره العيش بعيدا عنهم بين جنبات ذلك المكان ووسط آخرين ممن إنسحبوا من الحياة إلى داخل أنفسهم.

وكان وليد يتعجب حين يتأملون أباهم، فهو يبدو ودودا هادئا مبتسما، و كان يقبلهم بشغف و حنين و يستمتع بأكل الربسوس و الملبس الأحمر، و يبدو سعيدا بالزيارة، حتى و إن كان كريم يبدو شاردا دائما و لا يجيب على أسئلة والده عن المدرسة و النادي و الأصدقاء. أما هادي، فكان ينشغل بالجري هنا و هناك، معتبرا أن المستشفى ناد كبير. أما والدته فكانت تحاول أن تداري حزنا يتلألأ في عينيها، و يدركه وليد حتى دون أن ينظر إلى وجهها المعذب.

كان مشوار المستشفى بالنسبة لوليد أمرا واقعا، لا يسعده و لا يشقيه، إنما يستسلم له كجزء طبيعي من وجوده.

١٦

خطا وليد بقدميه طرقات المستشفى و هو يحاول أن يخفف من سرعته التي يدفعها حماسه للبدء في العمل مع سنية. كانت في الأيام الماضية قد بدأت تسترد عافيتها الجسمانية على الأقل، وتابع وليد مع الممرضات حالة الجرح و شفائه.

وأحس أن سنية بدأت تستكين إلى وجوده معها لبضع دقائق صباح كل يوم. لم ير في نظرتها معرفة أو تذكر، ولكن مجرد بصيص من الارتياح و سحابة ابتسامة بعيدة أو هكذا خيل له.

حين وصل إلى العنبر طالعته ضحكات خليعة فعرف أنها لتلك الممرضة ذات الأرداف الراقصة، إبتسم وليد لنفسه قائلا إنها لابد وأن حظيت بصيد جديد.

و بالتدقيق في موقعها وجد شابا صغيرا لا يتجاوز عمره سنوات الجامعة، ولكن سعادته بتدلل تلك الممرضة طار به إلى خيالات صاغاها معا هربا من واقع محبط بارد.

نظر وليد إلى سبب اجتماعهما في تلك اللحظة فلم يطالعه سوى وجه شاحب متألم لامرأة ربما تكون أمه، أو جدته. فخطوات السنين على وجهها رسمت تعابير أقسى من أن تفسر على عجل.

و لكن أيا ما كانت تلك البائسة بالنسبة للشاب، فقد فقدت منه في طوفان الرجولة الذي غلفته به أرداف الممرضة التي أمامه.

أسرع وليد إلى جوار سنية الراقدة تحملق في فراغ الغرفة كالمعتاد.

«تعالي معايا يا سنية، قومي"

رفع عنها الغطاء و عاونها على الجلوس ثم قامت استجابة له و خطت معه في خطوات ثابتة بطيئة عبر العنبر و اجتيازا لبؤس مريضاته. لم يجد وليد مكانا ينفرد فيه بسنية سوى إستراحة الزائرين، و التي خلت في هذا الصباح من روادها.

أجلس وليد سنية إلى مائدة في ركن بعيد و بدأ في إخراج ما أعده لأول جلسة معها.

١٧

الولد أبو نور أبيض بيلمع قعد قدام سنية و طلع من شنطة معاه علبة صغيرة حطها على الترابيزة و فتحها. العلبة كانت فيها دواير صغيرة ملونة، دواير كثير قوي، كل الألوان.

وبعدين حط قدام سنية فناجين فيها مية بعد ما لون كل فنجال بلون. بقي فيه فنجال مية زرقا، وفنجان مية صفرا، و وفنجان مية خضرا...

بصت سنية للألوان و عجبتها. أول مرة تشوف ماية ملونة. حطت صباعها في الماية خرج لونه أزرق، بصت له كويس و حطت من الماية الزرقا على إيدها.

الولد حط قدامها ورقة بيضا، بلت سنية صباعها ثاني بالمية الزرقا و رسمت خط على الورقة البيضا. بصت لها كويس و سرحت في اللون اللي بقى على الورقة البيضا.

وبعدين حطت صباعها في المية الخضرا و رسمت خط أخضر. وبعدين حطت صباعها في اللون الأصفر و رسمت خط واثنين وثلاثة.

الولد أبو نور أبيض جاب فنجال كمان و حط فيه لون ما بتحبوش سنية. ما رضيتش تبص عليها، و فضلت تلون في الورقة بالألوان الثانية.

حط الولد صباعه في الميية الحمرا و رسم نقطة على الورقة البيضا.

بصت لها سنية قوي و ابتدت إيديها تترعش. كل الخطوط اللي كانت بترسمها إبتدت تترعش، و دخلت في بعض. حست إن الخطوط كلها بتصرخ و بتحاول تهرب من الورقة، الخطوط كلها خايفة، و النقطة الحمرا بتكبر و تقرب منهم و الخطوط مش عارفة تروح فين!

مسكت سنية الميية الزرقا و دلقتها على الورقة عشان تغطي الأحمر، و دلقت الأخضر و الأصفر بس الأحمر فضل باين قدامها. غمضت سنية عنيها وقعد تئن بصوت عالى وتهز في جسمها عشان تهرب من اللون اللي ما بتحبوش، لحد ما حست بإيد الولد بتطبطب عليها.

«خلاص خلاص شيلتها"

فتحت سنية عينيها مالاقيتش الورقة ولا الألوان. و بصت للولد لقت اللون الأبيض اللي حواليه مش بيلمع زي الأول. عرفت إنه زعلان. بصت لإيديها عشان تتأكد إن اللون الأحمر ما جاش عليها. كله إلا الأحمر. مش لازم يكون فيه أحمر. الأحمر لأ!

١٨

جلس وليد إلى مكتبه يفكر في حالة سنية و رد فعلها للون الأحمر. كان مقتنعا تماما أن لذلك اللون صدى في حياتها، صدى لا تحبه، بل و تخشاه، ولهذا كانت تهرب منه. فكلنا لدينا ما نهرب منه في حياتنا. البعض يهرب بالنسيان، أو بالتناسي، و البعض الآخر يهرب بالجنون. ألم يكن ذلك ما فعله والده؟ هرب من واقع حياته وفشله المتكرر بالهرب إلى اللا واقع و إلى الجنون.

أفاق وليد على تلك الكلمة و لام نفسه على استخدامها. كيف له و هو الطبيب المتخصص أن يصف سنية بالجنون؟ هل يصدر عليها نفس الحكم الذي آصدره الآخرون على والده حين انتهت به الضغوط و الحياة إلى أيام محبوسة داخل جدران نفس المستشفى؟ هل يقسو على سنية بذلك الوصف كما فعل الناس من قبل بأبيه؟

وماذا عن كريم، أخيه الأكبر، الذي فاجأهم في يوم بقراره الهجرة إلى أمريكا بعد أن أنهى كل أوراقه و معاملاته، و لم يبق على سفره النهائي سوى يومين؟

رآى وليد ذلك المشهد مرة أخرى بخياله وهو جالس إلى مكتبه. أمه وقد أخرستها الصدمة وهادي بوجهه المتبلد من خدر الكيف الذي صار أسيرا له منذ سنوات، رغم كونه لم يكمل الثامنة عشرة من عمره.

ولكن أكثر ما يتذكره نظرة البرود على وجه كريم و التي لم يستطع وليد أن ينساها أبدا، على الرغم من السنوات التي مرت عليها.

«يعني إيه مسافر بعد بكرة؟"

«يعني حاركب الطيارة و امشي، عادي.»

«عادي إزاي؟ وازاي تبقى بتعمل ورق هجرة وما تقولناش؟"

«أديني باقولكم"

«بتقولنا و انت خلاص مخلص كل حاجة وماشي؟"

«كانت حتفرق إيه تعرفوا من سنة و اللا تعرفوا النهاردة؟ أنا أخدت قرار و خلاص"

«لأ القرار ده مش بتاعك لوحدك. القرار ده يخص أمك، و أخوك، و أنا! مش ممكن بالظروف اللي احنا فيها دي تسيبنا و تمشي!»

«ماهو عشان الظروف دي أنا ماشي. واحد في المستشفى، و الثاني مبرشم على طول، و انت عاملي مصلح إجتماعي! كفاية بقى إنا زهقت! مالي أنا و مال كل ده؟ ذنبي إيه؟"

«يعني حترمينا كده وكإننا مش موجودين؟ تنسى إن لك أب و أم و اخوات؟ طالع كده شيطاني؟"

«شيطاني عفاريتي أهه ده اللي قررته. ولما أروح هناك كمان و اترستأ حاقدم على تغيير إسمي. مش عاوز يبقى لي أي صلة بالعيلة دي.»

«إنت أكيد إتجننت! أكيد إتجننت!»

«وانا يعني حاجيبه من برة؟"

إندفع وليد نحو أخيه الأكبر و طرحه أرضا وبدأ يكيل له الضربات و هو يفرغ فيه كل غضب اللحظة و ألم السنين الذي اختزنه منذ كان طفلا. شعر أنه يصفع على وجه كريم كل من تغامز عليهم حين جاء البوليس و ليصحب أباه إلى المستشفى، و

ركل في ركلاته لكريم كل من افتعل مواساة أمه كي ينهش في لحمها وهي شابة وحيدة لا سند لها سوي زوج مجنون، حبسه عقله في دوامة من الهلاوس والشكوك قبل أن يحبسه داخل جدران حجرية لا خلاص منها.

صرخت أمه ترجوه أن يترك كريم و أحس بيدها تجذبه بكل قوتها و صوتها يشق قلبه من الحزن علي ما آل إليه ولدها الأكبر.

«سيبه يا وليد، خلاص منه لله. سيبه يا حبيبي، أنا مش عاوزاه! مش عاوزاه!!»

ترك وليد أخاه الذي صار منذ اللحظة غريبا و التفت إلى أمه يحتضنها حضنا حاول به أن يعوضها عن فقدان الأخ الثاني بالقسوة بعد أن فقدت الأول بالتيه.

١٩

فتحت سنية عينيها لما سمعت صوت الولد. حفظت صوته و فتحت عينيها عشان تشوف اللون الأبيض اللي بتحبه. لقته واقف قدامها واللون الأبيض بيلمع قوي. الولد جاب كرسي وقعد جنب السرير، وطلع زي المرة اللي فاتت علبه فيها ألوان كثير و كبايات مبية. بس المرة دي ما كانش فيه أحمر. فضل الأحمر جوة العلبة.

بصت سنية للألوان كلها و نقت الأزرق وبدأت ترسم بصباعها على الورقة خطوط طويلة وخطوط عريضة، ونسيت خالص إن الولد قاعد جنبها.

الخطوط بعد شوية بدأت تتدور لوحدها، لحد ما عملت دواير كثير ملت الصفحة.

لما الولد لقى إن الصفحة إتملت حط قدام سنية ورقة ثانية ورسمت هي فيها دورية في النص، وبعدين نزلت من الدورية خط دوغري وشابك فيه خطين ثانيين، و جنب الرسم ده عملت دورية ثانية بلون ثاني، دورية أصغر و نزلت منها خط بالطول و طالع منه خطين ثانيين.

سنية ما رفعتش عينيها من على الورقة، كانت مش شايفة حاجة غير الرسمة اللي رسمتها بالألوان اللي جابها الولد أبو لون أبيض حواليه.

٢٠

لم يصدق وليد عينيه. فأمامه بدأت سنية تكون رسما على الورق. لم يصدق أنها رسمت بخطوط

بسيطة بدائية جدا سيدة و طفلة في منتصف الورقة.

أخذ وليد يحملق في الورقة بينما سنية تضيف بخطوطها المتعرجة تفاصيل شخوصها. السيدة تخفي رأسها بلون واحد و كأنها ترتدي طاقية، أو ربما منديل رأس. أما الطفلة، فرأسها به خطوط كثيرة تلتقي في النهاية في خطو واحد طويل منسدل علي كتفها و أغرب ما فيها أنها تمسك في يدها بقطعة من القماش تكسوها ورورد ذهبية. نظر وليد بدقة في تفاصيل الرسم ثم همس لسنية متسائلا:

«مين دول يا سنية؟ حد تعرفيه؟"

لم تجب سنية، و أنما استمرت في تلوين المكان من حول شخصياتها على الورق.

«حلو قوي القماش ده يا سنية، بتحبي الورد؟"

لم تجب سنية، و استمرت في التلوين.

«خصوصا الورد الذهبي ده، أنا عمري ما شفت ورد ذهبي"

توقفت سنية عن التلوين و رفعت رأسها و نظرت إلى وليد في عينيه لأول مرة منذ أن إلتقيا.

٢١

سنية كانت بتحب الولد. مش بس عشان حواليه اللون الأبيض اللي بيلمع. كمان عشان جابلها الألوان اللي بترسم بيها. كل الألوان حلوة، و رسمت بيها الرسمة اللي كانت عاوزاها. عشان كده بتحبه سنية حتى وهي مش عارفة إنها بتحبه.

الولد سألها على الورد الدهبي، بطلت سنية التلوين، ورفعت سنية إيدها من الورقة، و طلعت من صدرها حتة قماش قديمة، قماشة كانت معاها من زمان، حتى مش فاكرة من إمتى، بس دايما معاها.

فردت إيدها و فتحتها عشان توريها للولد.

القماشة كانت لونها أخضر و فيها ورد ذهبي. فضلت باصة في القماش شوية و بعدين رفعت إيدها و إدتها للولد.

***

أمسك وليد بالقماش بين يديه و هاله القدم الذي يبدو عليه. لا شك أن تلك القطعة ذات الورد الذهبي هي مصدر الورد الذهبي الذي رسمته سنية في الورقة. إذا فالتحليل الوحيد المنطقي هو أن تلك الفتاة الصغيرة هي فتاة حقيقية تعرفها سنية، أو ربما تكون هي سنية نفسها.

طغت سعادة و حماس على تفكير وليد وعرف أنه خطا أول خطوة في الطريق الصحيح، حتى و إن كان طريقا طويلا على ما يبدو، لكنه سيكشف السر في حياة سنية و ربما يخرجها من عزلتها التي استكانت إليها لسنوات طويلة.

قطع على وليد حبل أفكاره دخول عائلة مكونة من أم و طفل صغير لزيارة السيدة التي ترقد في فراش في آخر العنبر بجوار الباب.

بدأ وليد يلملم أشياءه حتى لا يعرض سنية ومحاولاته معها إلى أي انتقاد أو شفقة أو حتى سؤال قد يقتحم خصوصيتهما. ولكن فجأة سمع صوتا شد انتباهه. فقد بدأ الولد يدق على أصابع بيانو خشبي صغير مثل تلك الآلات التي كانت منتشرة منذ زمن. إلتفت

وليد تجاهه و ابتسم، فهو لم يكن يدرك أن هناك من لا يزال يلعب بالبيانو الخشبي في زمن الانترنت.

كانت النوت المنبعثة منه نشازا ومزعجة واستراح وليد لفكرة أنه سيترك المكان للولد الصغير يزينه بما يشاء من موسيقى صدئة. ولكن النظرة على وجه سنية أوقفته في مكانه مذهولا.

كانت سنية تبدو وكأنها في عالم آخر، نظرتها سارحة إلى آخر العنبر، إلى فراش السيدة ذات الزائرين. نظر وليد إليهم مرة أخرى ولم يجد شيئا مثيرا للانتباه. سيدة مصرية عادية، وطفل صغير يلعب بالبيانو الخشبي. ترى أيكون هو مصدر اهتمام سنية؟

قام وليد من مكانه واقترب منهم.

«صباح الخير، أنا الدكتور وليد. إزيك يا حاجة، عاملة إيه النهاردة؟

«الحمد لله"

توالت أسئلة وليد عن حالة المريضة رغبة منه في كسب بعض التعاطف و المودة. ثم حين اطمأن إلى أنه قد أثبت حسن نيته واهتمامه بالمريضة، نظر إلى الصبي و وجه إليه طلبا محددا.

«ممكن أستلف منك البيانو ده شوية؟"

نظر الطفل بعجب إلى وليد، ثم إلى أمه و كأنها يسألها عن رأيها في الطلب أو حتى فيمن يطلبه.

"آه طبعا اتفضل يا دكتور، بس ده قديم و حتى مش شغال كويس. أصله بتاع جوزي وهو صغير"

أكد لها وليد أن البيانو سيفي بالغرض الذي يريده من أجله، ثم نظر إلى الصبي و طلب منه أن يصحبه إلى سنية في آخر العنبر.

«روح يا إسلام مع الدكتور"

خطا الصبي الخطوات المطلوبة وهو يحمل البيانو بين يديه وكأنه قربان سيقدم لصاحب الدواء حتى يرضى. كانت خطواته بطيئة على عكس خطوات وليد الذي كان يكاد يثب إلى سرير سنية. و حين وصلا إليها كانت لا تزال تنظر إلى البيانو وكأنه أتى من تلقاء نفسه دون أن تحمله يدا الصغير إليها.

أخذ وليد البيانو من بين يديه ووقف يحمله أمام سنية و يتفحص وجهها بدقة حتى لا تضيع منه أي هفوة أو خلجة تظهر عليه.

«ممكن تلعب على البيانو ثاني؟"

حملق الصبي في وجه سنية و أحس أن بها شيئا ما لا يفهمه و ربما حتى يخشاه، إلا أنه أخفى خوفه محاولا أن يطمئن نفسه أن أمه موجودة ولن تدع أي شر يلحق به من تلك المرأة الغريبة ولا من الطبيب الذي ينتمي إلى فصيل لا يحبه الصبي بطبيعة الحال.

نظر نحو أمه مرة أخرى فابتسمت إبتسامة سعادة و تشجيع. فالطبيب الشاب الذي يعتبر أعلى أهمية من كل من في العنبر من مريضات و ممرضات تجئن و تختفين مهتم بابنها و لعبته، و ينتظر مساعدته في شيء لا تفهمه. إبتسمت لابنها تشجعه و هزت رأسها في حركة آمرة يعرفها جيدا الصبي، ففكر الصغير أنه إن أسرع بأداء مهمته سيتركه الطبيب يعود إلى أمه وجدته و ينتهي الموقف الذي لا يكاد يفهم منه شيئا. رفع الصبي يده ودق بأحد أصابعه علي البيانو متراقصا بيده عليه دون ترتيب.

زاد انتباه سنية وحملقت في البيانو بشدة و كلما زادت قطرات الموسيقى التي تنتشر في العنبر إزداد تعلق سنية بالنظر إلى مصدرها، حتي رفعت يدها في النهاية و حاولت لمس شيئا ما

فوق البيانو، ثم صعدت بيدها نحو الصبي الذي توقف عن العزف، و نظرت إليه وكأنها تراه لأول مرة، ثم مالت بجسمها نحوه محاولة لمس وجهه كما فعلت مع وليد أول مرة رأته فيها.

٢٢

سنية وهي قاعدة على السرير سمعت صوت مزيكا طالع من حاجة شايلها الولد أبو لون أبيض. بصت سنية كويس لقت إن المزيكا طالعة لها ألوان زي الألوان اللي بتبقى حوالين الناس. الألوان ما كانتش كلها زي بعض. كل صوت له لون، ده أصفر و ده أزرق، و ده برتقاني و ده بنفسجي!! الألوان كانت بتطلع وتطير لفوق كل ما صوت يطلع من البيانو الخشب. مدت سنية إيدها و حاولت تلمس الألوان، بس المزيكا وقفت، والألوان إختفت. رفعت سنية وشها وبصت بتدور على الألوان ثاني، مالقيتش غير الولد أبو لون أبيض بيلمع، و جنبه ولد صغير، حواليه برده لون أبيض بيلمع، بس بيلمع قوي. مدت إيدها سنية عشان تلمسه، عشان هو ده اللون اللي بتحبه، أكثر لون بتحبه.

الولد الصغير رجع لورا و بص لواحدة ست قاعدة بعيد. قامت الست من مطرحها وجت بسرعة ناحيتهم. سنية ما همهاش كل ده. نسيته في لحظة، كل اللي هامها المزيكا اللي كانت طالعة من العلبة الخشب و الألوان اللي كانت طالعة من المزيكا. مدت إيدها و لمست أول مفتاح في العلبة، مفتاح أبيض في النص طلع صوت عالي، و طلع معاه لون برتقاني . داست عليه ثاني طلع

لون برتقاني ثاني، داست على اللي جنبه طلع صوت جديد و طلع معاه لون أصفر شافته طاير في الهوا. سنية بقت فرحانة. قعدت تدوس على كل الزرايير و بقت الألوان طايرة قدامها في الهوا لحد ما داست على زرار معين و طلع اللون اللي ما بتحبوش.

زقت العلبة بعيد و اترمت على السرير وخبت وشها مش عاوزة تشوفه. اللون كان أحمر.

٢٣

لم يعرف وليد سبب التغير الذي طرأ على سنية. فبعد أن تحمست لوجود البيانو وأخذت تدق على مفاتيحه المختلفة محدثة إزعاجا و نشازا رهيبا كانت سعيدة به. أطاحت به فجأة فطار إلى الأرض و تكسر إلى عدة أجزاء.

وصلت إلى مكانه في نفس اللحظة أم الصبي الصغير و نظرت إليه بعينيه يملأها الغضب و الشر و أخذت تلومه على السماح لمريضته بالعبث بمقتنيات الآخرين. وها هي قد حطمت لعبة حمادة، فماذا هو فاعل الآن؟

وصل صوت الممرضة ذات الأرداف يبرر ما حدث في نبرة تقرير للواقع.

«ما هي مجنونة جايالنا م السرايا الصفرا، إحمدي ربنا إنها ما كلتش الواد!»

شدت الأم حمادة إلى صدرها و أخفت وجهه فيه حتى لا يقع نظره على تلك المخلوقة الشريرة.

«مجنونة؟ يا امة!! و سايبينها مطلوقة كده ع الناس؟ يا حفيظ يا رب"

سارع وليد بالاعتذار بكل ما أوتي من قوة، و أراد أن يتخلص من أم الولد سريعا حتى يعود إلى مريضته التي تبدل حالها في لحظة و عادت إلى قوقعتها الصامتة البعيدة التي كلفته جلسات عديدة ليخرجها منها.

«أنا آسف يا ستي و الله حاجيبلك واحد بداله"

«تجيبهولي منين؟ ده بتاع أبو حمادة من وهو صغير!»

«معلش إتفضلي آدي ميت جنيه. إشتريله واحد ثاني"

تخلص حمادة من قبضة أمه و نظر نحو الورقة المالية التي أصبحت حسب كلام الطبيب الشاب من حقه.

«لأ يا ماما أنا عاوز عجلة"

«بس يا واد بلاش غلبة. اللي حاجيبهولك تاخده و انت ساكت"

عادت أم حمادة أخيرا إلى مكانها الأصلي في آخر العنبر و قد واستها كل سيداته الأخريات شاكين من جنون تلك المرأة التي

ابـتلاهن الزمـان بهـا طـالبين مـن الله أن يكفـيهن شـرها و شـر أمثالها.

«دي ما بتنيمناش الليل يا اختي"

«ننـام إزاي، مـا هـي طـول الليـل بتهوهـو و تنونـو، الواحـد جسـمه اتلبش!»

«ومين عارف يمكن تقوم عليها الجنّونة تخنق واحدة فينا و لا حد يحس!»

نظـر إليهن وليـد للحظـة فـي غضـب مكتـوم ثـم صـاح فيهن مـن موقعه كطبيب تسمع أوامره دون نقاش.

«بس! مش عاوز صوت في العنبر"

سـكتت المريضـات و تقوقعـت أم حمـادة علـى جسـد أمهـا و هـي تحكـي لهـا بالتفصـيل مـا حـدث و مـا لـم يحـدث و مـا كـان مـن الممكن أن يحدث لولا ستر ربنا.

نظر وليد إلى سنية فلم يجد على وجهها أثرا لغضب أو إنزعاج و كـأن كـل مـا حـدث لـم يـدخل إلـي عالمهـا المطبـق فـي الصـمت.

جلس يفكر فيما حدث منها و حاول أن يحلله بهدوء. فمن الواضح أن سنية لها مفاتيح. الماء، و الألوان، عدا اللون الأحمر الذي يدخلها في حالة من الخوف و التوتر، و كذلك زادت عليهم الموسيقى، ولكن وليد يعرف أن الموسيقى وحدها ليس لها نفس الأثر على سنية، إذن ما الذي زاد عليها هنا؟

٢٤

نزل الدكتور ناجي من سيارته مبتسما بشوشا، لا لسبب سوى أنه يصحب اليوم معه إلى مكتبه ومستشفاه هنري آدلر، الطبيب النفسي الأمريكي الذي يزور القاهرة لمدة ٣ أيام و دعاه ناجي ليثبت له أن مستشفى العباسية للأمراض النفسية بها أحدث ما وصل إليه الطب النفسي في العناية بالمرضى، و أنه شخصيا لا يدخر وسعا ليخفف عنهم آلامهم. ألم يطلب المستشفى في الثالثة صباحا و أصدر أوامره قبل أن يذهب إلى النوم أن يقوم العاملين بتنظيف العنابر كلها و أن تقوم الممرضات بغسل شعر و ووجه النزيلات في عنبري ١٥ و ٣٦ سيدات لأنهن الأقل خطورة، و أن يحلق الممرضين ذقن نزلاء عنبر ١٦ رجال لأنه الأقل تكدسا؟ إن المستشفى مستشفاه و المرضى مسئوليته وهو يأخذ كل ذلك مأخذ الجد، حين يأتي أي ضيف لزيارتهم، فهي مسئولية.

زاد ناجي من إتساع ابتسامته حين نظر إلى سلالم المستشفى ووجد بعض أواني الزرع وقد رصت حولها، ورفع عينيه إلى الممرضتين اللتين تقفان في انتباه و ترحيب على الباب الرئيسي. فكر للحظة هل رآهما من قبل؟ لعله لم يرهما لأنه بالكاد ينظر

إلى العاملين في المستشفى، فما فائدة النظر في وجوههم، المهم أن يطيعوا أوامره.

خطا نحو الدكتور آدلر الذي نزل من السيارة، مرحبا به بانجليزيته المدرسية المتصلبة.

«تفضل يا دكتور آدلر، إن هذا شرف كبير، تفضل"

«شكرا يا دكتور ناجي، متى تم بناء هذا المستشفى يا ترى؟"

«متى؟ أ... منذ زمن بعيد. فمصر متطورة جدا في التعامل مع الحالات النفسية و العقلية كما ستشاهد بنفسك الآن. تفضل، تفضل"

دلف ناجي و من ورائه آدلر إلى بهو المستشفى و دخلت وراءهما الممرضتان في ركب زاد بتحية الممرضين الوقفين على جانبي الصالة الرئيسية و الممر المؤدي إلى عنابر النزلاء.

إقترب ناجي من مكتبه و فتح بابه أحد مساعديه و خطا ناجي خطوة داخله ولكن دكتور آدلر توقف مبتسما.

«هل لديك مانع أن أرى النزلاء أولا؟"

زاغت نظرات ناجي للحظة حتى رست على وجه سعد الممرض الذي هز رأسه بالإيجاب مؤكدا أن كل أوامر الدكتور ناجي في الفجر قد تم تنفيذها.

«بالطبع بالطبع، كما تشاء. تفضل، تفضل".

خرجا من مكتب ناجي إلى الممر الرئيسي عبر البهو، ثم إتجها يسارا إلى الممرات المؤدية إلى عنابر السيدات. كانت الممرات كلها تلمع بنظافة لم يشهدها ناجي منذ عين في المستشفى منذ سنوات عديدة كاد ينسى عددها. إبتسم و قرر أن يمنح أولائك البهائم الذين يعملون تحت إمرته مكافأة خمسة أيام، ثم قطب وجهه وفكر أن ٥ أيام قد تفتح باب الطمع من أولائك البهائم، يومان يكفيان، أو ربما حتى يوم واحد. أحس ناجي بالفرح و اطمأن أن الزيارة ستكون ناجحة جدا و ربما تأتي إليه بدعوة لمؤتمر هام أو محاضرة كأستاذ زائر في جامعة كاليفورنيا التي يمثلها آدلر.

عند التقاء الممر الذي يمشي فيه ناجي و الدكتور آدلر بالممر المؤدي إلى عنبر ٣٦ سيدات، فوجئ بالدكتور وليد يمشي و بصحبته سنية بشعرها المتدلي بخصلاته السوداء المتمردة حول

وجهها و عينيها المطروحتين أرضا و خطواتها الساكنة في شبشب لم يعد أحد يتذكر مالكه الأصلي. فقدما سنية تغوصا في جنباته و يكاد يتطاير تاركا قدميها مع كل حركة لهما.

زم ناجي شفتيه محاولا قطب غيظه. فذلك الولد لا ينصاع لأي تعليمات أو أوامر، وها هو الآن يتعمد الإساءة لصورة المستشفى و سمعته باصطحابه تلك الفتاة في جولات عقيمة بغرض إفساد كل ما يحاول ناجي فعله.

شاهد وليد نظرة ناجي المتحجرة على سنية ثم نظرته النارية له، فتوقف و أمسك بذراع سنية ليمنع استمرار تحركها للأمام حتى لا تصطدم بناجي و رفيقه. لم يكن وليد يعرف بمقدم آدلر للمستشفى لأنه لم يتواجد بها في الليل أثناء آصدار ناجي لأوامره، و في الصباح الباكر ذهب إلى القصر العيني لإخراج سنية و العودة بها إلى العباسية بعد أن سمح له الطبيب المعالج بذلك. لم يفكر وليد أن يمر على العباسية قبل أن يتسلم سنية، ولم يفكر أحد في الاتصال به لإعداده لزيارة آدلر. فوليد مجرد ترس صغير في ماكينة ناجي العلاجية، ولذلك لا يطرأ على بال أي من التروس الكبيرة ولا على بال ناجي بالطبع.

إبتسم آدلر لوليد في سذاجة لطيفة، فقد أصبحت سنية رغما عن الجميع أول مريضة يراها في جولته.

مد يده في تحية لوليد.

«صباح الخير، أنا هنري آدلر، طبيب زائر من جامعة كاليفورنيا"

شد وليد على يد آدلر عفويا وهو يجيبه.

«وليد صبري، طبيب هنا في المستشفى"

نظر آدلر إلى سنية و ابتسم "هالو".

لسبب لا يعرفه وليد، رفعت سنية رأسها و نظرت إلى آدلر للحظات ثم مدت يدها و لمست شعره الذهبي قبل أن يستطيع ناجي أو وليد أن يمنعاها.

عادت سنية بيدها إلى شعرها و نظرت إلى خصلاته السوداء على كتفها و كأنها تقارن بينها و بين آدلر.

همس ناجي بفحيح مكتوم.

«إيه يا سي زفت؟ مش عارف تمسكها؟ و رايح جاي بيها كده ليه؟"

قبل أن يجيب وليد، نظر آدلر إليه متسائلا

«ما حالتها يا دكتور وليد؟"

طفا إلى سطح الحدث حماس وليد و اهتمامه بحالة سنية و بدأ يشرح للدكتور آدلر ما يعرفه عن ماضيها و دخولها المستشفى، ثم ما لاحظه عليها و ما وصل إليه مؤخرا من رد فعل حال سماعها النغمات الموسيقية من البيانو الخشبي.

بدا الاهتمام على وجه آدلر و سأل وليد إن كان لديه أي خط محدد للعلاج ينوي تطبيقه، فرد وليد بأن تأثير الماء على سنية كان أيضا ملفتا للنظر لذلك سيقوم ببعض التجارب معها التي قد تفتح أبوابا للدخول إلى عالمها المغلق منذ سنوات، و قد يأخذها في جولات خارج المستشفى في محاولة لفك الحصار الذي فرض عليها سواء كان منها أو من عوامل مازالت مجهولة لهم. إبتسم آدلر سعيدا و أكد لوليد أنه لو كان لديه المزيد من الوقت في مصر لكان تابع معه حالتها بنفسه. وفجأة، أخرج من حافظة نقوده كارتا به إسمه و أرقام هاتفه و عنوانه الإلكتروني، و أعطاه

لوليد راجيا أن يبقيه على علم بالتطورات التي تحدث في حالة سنية، و بأي معلومات يتوصل إليها وليد أثناء علاجها.

تحول وجه ناجي إلى كرة منتفخة حمراء مزدردة و أحس بضغطه يعلو إلى مستويات كاد يجزم أن أحدا لم يصل إليها من قبل. وحملق في وجه وليد بكل ما في كلمة الكراهية من معاني واخذ يزم فمه مطبقا على كلمات جالت بفكره و حفظتها ذاكرته لتطلقها كلها دفعة واحدة، ما إن يتخلص من آدلر و ينفرد بذلك المتسلق المدعي وليد.

«أهنئك يا دكتور ناجي على براعة طبيبك الشاب وقدرته على الاهتمام بمرضاه إلى هذه الدرجة. لا شك أنه سيصل بها إلى آفاق في الطب النفسي لم يصل إليها أحد من قبل و يحقق نتائج مبهرة!»

"طبعا طبعا. هذا ما أقوله له دائما"

أحس وليد بغدر ناجي يزحف تحت كل كلمة نطق بها، و الأهم أنه شعر بسنية و قد بدأت تحملق في ناجي و تأخذ بعض خطوات متوجسة إلى الخلف و قد تحولت يدها التي مازال يمسك بها إلى ذراع متخشبة مرتعشة و شعر أن اللحظات القادمة

ستفجر من الموقف ما قد يفسد كل ما وصل إليه معها ومع ناجي نفسه.

٢٥

سنية شايفة الرجالة قدامها، واحد راسه لونها زي الدهب اللي بيلمع، و حواليه لون أصفر فاتح زي نور الشمس. و الثاني وشه مدور و حواليه لون رمادي زي تراب الأرض.

سنية كانت شايفة الألوان لكن ما كانتش فاهمة بيقولوا إيه. كانت سامعة الكلام، بس ما كانش كلام م اللي هي عارفاه. كثير كانت بتسمع كلام عارفاه، يمكن مش عاوزة ترد عليه أو مش هاممها معناه، بس كانت عارفاه، متحوش عندها من زمان. الكلام ده كان غير كده. كان صوته غير كده، عمرها ما سمعت زيه.

إتكلموا كثير و هي واقفة جنب الولد أبو لون أبيض بيلمع. كان ماسكها من إيدها، وكانت متطمنة. كل ما بيبقى جنبها بتبقى متطمنة، عشان اللون الأبيض اللي حواليه هي بتحبه.

بس فجأة الراجل أبو وش مدور بقى شكله وحش، واللون الرمادي دخل عليه لون ثاني شافته سنية حتى من غير ما تبص في وشه. أصل اللون ده كانت مش بس بتشوفه، كانت بتحس بيه، بيخللي جسمها يرتعش، بيخليها تخاف.

كانت عاوزة تشد إيدها، كانت عاوزة تبعد. لازم تبعد، مش عاوزاه، مش عاوزة اللون ده اللي بتخاف منه!

إبتدت تشد إيدها و هي بتترعش، بس الولد أبو لون أبيض شدها ناحيته ومشي بيها لحد أوضة فاضية ودخلت معاه. قعدها على كرسي وحط قدامها ورق كثير وألوان، و العلبة اللي بتعمل صوت و تطلع ألوان في الهوا.

الولد داس على زرار في العلبة، عملت صوت، داس على زرار ثاني عملت الصوت ثاني، وسنية مدت إيدها للألوان اللي على الترابيزة قدامها. نقت اللون الأخضر و رسمت بيه دواير على الورقة. داس على زرار ثاني، عمل صوت مختلف، سابت سنية اللون الأخضر ومدت إيدها ورسمت باللون الأصفر دواير برده على الورقة.

زرار ثالث، صوت ثالث، اللون البرتقاني. زرار رابع، صوت رابع، اللون الأزرق.

رجع الولد للزرار الأولاني، والصوت الأولاني، رجعت سنية للون الأولاني و رسمت باللون الأخضر على الورقة.

الألوان في الورقة بقت كثير، وقعد الولد يبدل الزرايير و تطلع أصوات وسنية بترسم الألوان.. كل صوت له اللون بتاعه. عمرها ما غلطت، عمرها ما غيرتهم.

من غير ما تفكر، عارفة لون كل صوت و بترسمه علشان شايفاه. كل صوت طالع من العلبة ليه لون سنية شايفاه، بيطلع ويطير فوقهم في الهوا. مبسوطة، كانت مبسوطة. صحيح ما بتبتسمش، ولا بترفع عينها من على الورقة و الألوان، بس كانت مبسوطة.

٢٦

حملق وليد في سنية وهو لا يكاد يصدق ما يحدث. فمع كل نوتة موسيقية تختار سنية لونا محددا. تابعها وليد و هي تنتقل من الأخضر إلى الأصفر إلى البرتقالي ثم إلى الأزرق، وتعود مرة أخرى إلى الأخضر حين عاد هو إلى نوتة معينة.

حاول تتبع الألوان مع النغمات فوجدها تغير الألوان كلما غير النغمات، في تكرار مذهل.

سرى إليه من القدم صوت أبلة فادية وهي تعلمه السلم الموسيقي في المدرسة الابتدائية.

«إبدأ من النص، من الدو..»

ضغط وليد على الزر الذي يعرفه بداية لسلم الدو حتي في ذلك البيانو الخشبي العتيق. سمع الصوت صدئا عتيقا ورده في صمت لنفسه محاولا محاكاة أبلة فادية وذكراها العتيقة في خياله.

«دووووو"

تحجرت عينا سنية على البيانو وبدأت قسمات وجهها تتوتر وكأنها ترى شيئا تخشاه و تكرهه.

لم يفهم وليد ولكنه تابع دق النغمة حتى تلتقط لونا محددا تعبر به عنها كما فعلت مع النغمات الأخرى.

زاد توتر سنية ورفعت يدها فجأة لتزيح كل الألوان و الأوراق من أمامها وانثنت تهتز بشكل تلقائي وكأنما تهدهد نفسها وهي تئن. توقف وليد عن دق أزرار البيانو ورفع يده ليربت على رأس سنية مهدئا إياها في حنان قد لا يكون من ضمن مفرداته كطبيب نفسي، ولكنه أهم مقوماته كإنسان.

٢٧

خرج وليد من المستشفى إلى سيارته وألقى بنفسه في خضم الشوارع يطوي طرقاتها وحواريها وهو غير محدد الوجهة والهدف. كان رأسه يصرخ بأسئلة كثيرة لا يعرف لها إجابات. وكلها تدور حول سنية.

ما سبب تغيرها فجأة من الهدوء و السكينة و الانفصال عما يحدث من حولها إلى الخوف والاضطراب اللذين يلقيان بها إلى سجن داخل هواجسها وأطيافها.

تتبع وليد ما عرفه حتي الآن عن سنية من متابعته لها. تحب الماء وتأنس إليه، تخشى اللون الأحمر وتكرهه، لا تتفاعل مع الموسيقى ولا تلقي لها بالا، ولكنها تتواصل مع النوت الموسيقية على حدى ، وتدفعها لاستخدام الألوان بشكل متكرر ومحدد، ماعدا اللون الأحمر وماعدا نوتة "دو".

غرق وليد في أفكاره وقد نسي تماما ما حوله من سيارات و بشر متداخلين في الزمان و المكان. صرخ بوق سيارة قادمة نحوه وتعالى صوت قائدها في غضب جامح.

«ما تفتح يا حمار! إنت إيه؟ ما بتشوفش؟! الإشارة حمرا !»

أفاق وليد من غيبوبته الوقتية ورفع بصره إلى الإشارة الحمراء وقد توقفت سيارته في منتصف الطريق.

الصلة. ما الصلة بين تلك النغمات الموسيقية والألوان التي تنتقيها سنية؟ تكررها دون خطأ مع كل نغمة، فما الذي يحددها؟ وكيف يحل ذلك اللغز؟

فجأة، لمعت في ذهن وليد صورة لمياء زميلة المدرسة الحسناء التي تخصصت في الموسيقى والتي لم يرها منذ ما يقرب من ١٠ سنوات، وكان آخر لقاء بينهما هو ما وضعه على أول خطوات استخدام الموسيقى لكسر حواجز الصمت والريبة مع مرضاه.

اندفع قلبه يدق بشدة ويحثه علي المضي فيما فكر فيه. أدار سيارته بسرعة تاركا وراءه سيلا من البذاءات التي مازال الناس في الشارع يكيلونها إليه حزنا على بضع الثواني التي أضاعها عليهم، غير مدركين أن تلك الثواني ربما تفصل بين نجاحه أو فشله في التواصل مع سنية.

٢٨

إبتسمت لمياء وضحكت عيناها وهي تنظر إلى وليد

«يعني بعد ١٠ سنين جاي برده تطلب مني خدمة؟"

«هو انا طلبت منك خدمة قبل كده؟"

«آه، لما اديتني ورقتك في امتحان القدرات عشان أرسم لك بنت بتجري"

ضحك وليد حين تذكر الواقعة.

«وادينا سقطنا فيه إحنا الاثنين!»

«أيوه. خسارة! مصر فقدت إثنين فنانين كانوا حيولعوا الدنيا!»

إبتسم وليد واعتدل في مقعده وهو يستعد للخوض فيما يطلبه من لمياء بجدية.

«أكيد يا لميا النوت المختلفة ليها تأثير عليها، بس إيه دخل ده بالألوان؟"

«مش بتقول هي كل ما تشوف أحمر تتضايق؟"

«لأ مش بس بتتضايق، دي بيجيلها حالة هستيرية وخوف مضاعف. مش بتقدر تواجه اللون الأحمر خالص"

ركزت لمياء تفكيرها لبضع ثوان وانتفضت فجأة متجهة إلى أرفف عليها كتبها المختلفة، والتي كانت تغطي حائطا كاملا من مكتبها. أخرجت عدة كتب وبدأت تتفحصها بشكل سريع حتى انتقت أحدها وألقت بالباقي على مقعد مجاور لوليد في عجل.

جلست لمياء إلى مكتبها وفتحت ذلك الكتاب المختار وتمتمت لنفسها بكلمات مضغومة، ولم يفهم منها وليد شيئا.

سكتت لمياء للحظة وهي تقرأ وتسارعت دقات قلب وليد وهو يرى عينيها تتسعان باهتمام وتركيز.

«إيه؟ لقيتي إيه؟"

رفعت لمياء وجهها إليه وقالت

«فيه نظرية بتقول إن كل نوتة موسيقية ليها لون معين"

«يعني إيه؟ لون معين إزاي؟"

«يعني لما بنعزف نوتة معينة، فيه لون بيصدر عن النغمة دي، بس احنا مش بنشوفه"

صمت وليد للحظة حتى يستوعب ما سمعه. قد يكون ذلك هو تفسير اختيار سنية للون معين حين تدق أزرار البيانو. لكل نغمة لون محدد ترسمه سنية، ولكن معني ذلك أن سنية يمكنها رؤية تلك الألوان، وذلك في حد ذاته ما يحتاج إلى دليل يؤكده.

لمعت عينا وليد بفكرة جديدة ونظر إلى لمياء بحماس.

«تيجي معايا تشوفي سنية؟"

٢٩

الولد أبو لون أبيض بيلمع قاعد قدام سنية في أوضة في المستشفى وهي قاعدة مستنية. كانت عارفة إنه أكيد حيخليها تلون بصوابعها زي كل مرة.

«إزيك يا سنية؟ دي لميا جاية تشوف الصور الحلوة اللي بترسميها"

وليد حط ورق ملون كثير قدام سنية، ورقة صفرا و ورقة خضرا وورقة برتقاني و ورقة بمبة و وروقة رمادي و ورقة بيضا.

سنية بصت للورق وعجبها، بس ما مديتش إيدها تاخد ولا ورقة، ما كانتش عارفة تاخد أنهي واحدة.

وفجأة سمعت صوت نغمة لما لميا داست على زرار في الحاجة اللي شبه العلبة اللي بتطلع مزيكا. داست لميا على زرار معين، مدت سنية إيدها ونقت الورقة الصفرا.

داست لميا على زرار ثاني، أخدت سنية الورقة الزرقا.

فضلت لميا تدق الزراير واحد ورا الثاني، وسنية بتنقي الورق الملون.

برتقاني، أصفر، أخضر، أزرق، بنفسجي.

إبتسمت لميا وداست كل الزراير ثاني بنفس الترتيب، فلمست سنية نفس الورق ثاني بنفس الترتيب برده.

«عارف دي إيه يا وليد؟"

«إيه؟"

«ألوان الطيف، ماعدا الأحمر و النيلي. الأحمر لأن سنية مش بتحبه فما طلعناهوش والنيلي لأنه مش عندنا في الورق الملون"

«ودخله إيه بالمزيكا؟"

«آلألوان دي هي السلم الموسيقى بالترتيب ما عدا الدو واللا. وحسب نظرية الموسيقى والألوان، دول النوتتين اللي مرتبطين باللونين الوحيدين اللي ما استعملتهمش سنية".

أدرك وليد أنه وصل مع لمياء إلى كشف غريب. فكل نغمة لها لون تدركه سنية، ولا تخطئ في انتقائه، ولكن ذلك لا يحل لغز اللون الأحمر، ولم يكسر حاجز الصمت والغموض الذي يكتنفها.

«أنا حاسس إن اللون الأحمر هو مفتاح السر ولازم ندخله لسنية بشكل تدريجي"

«المزيكا زي المبية ممكن تدخل للإنسان بالراحة، نقطة نقطة، وده اللي لازم نعمله مع سنية"

إبتسم وليد و تنهد وقد أحس لأول مرة أنه ليس وحيدا. فقد وجد أخيرا من سيعاونه على مساعدة سنية وربما مساعدة نفسه أيضا.

٣٠

وصل إلى بيته رقد ملأه إحساس بالأمل، ونظر من حوله وكأنما يتمنى أن يجد أمه في استقباله حتى يحكي لها ما حدث وكيف أنه على وشك اكتشاف هام في حالة سنية.

وقع نظره على صورة أبيه وهو ببدلة رسمية وإلى جواره أمه بفستان الزفاف.

رفع وليد الصورة إلى وجهه وزفر متألما. تذكر معاناة والده مع ضغوط الحياة و صخب العيش. كان رقيقا محبا، ولكنه لم يقو على مجابهة ما ألقت به الحياة إليه فانزوى و توارى ثم انهزم وانكسر.

دمعت عينا وليد وهو يقسم دون أن يلفظها باللا يتخلى عن سنية. فما أحوجنا جميعا إلى أن يمد أحدهم يده إلينا في أضعف لحظاتنا حتى لا تسحقنا خطوات الحياة وتمضي دوننا. دق جرس هاتفه المحمول فجأة فتلقاه ونظر إلى شاشته فلم يتعرف على الرقم الذي يأتيه من بلد بعيد.

«ألو؟"

«مرحبا، أنا الدكتور آدلر، تقابلنا في المستشفى منذ عدة أسابيع، هل تذكرني؟"

تعجب وليد، وأسرع بالترحيب بالطبيب الكبير الذي دلف يشرح له أنه حصل على رقمه من الدكتور ناجي قبل أن يترك القاهرة، لاهتمامه بالأسلوب غير التقليدي الذي يتبعه وليد في علاج حالة سنية. وطلب منه الدكتور آدلر أن يطلعه على أي جديد يصل إليه معها.

سعد وليد بالتشجيع و فرح لكونه سيطلع الطبيب الشهير على ما حدث اليوم مع سنية.

خطا وليد عبر البيت ذهابا وإيابا وهو يحدث دكتور راندل ويصف له كل ما حدث و كيف صار لديه اقتناع أن سنية تعرف الألوان التي تصدر عن النغمات، وكيف أنه مؤمن أنه باستخدام اللون والنغم سيتمكن من الوصول إلى وسيلة لاختراق الجمود الذي يحتويها.

غلف صوت الطبيب المتخصص حماس و تشجيع وأكد على وليد ألا يتردد في الاتصال به وإطلاعه على كل ما يصل إليه من نتائج.

«أنا سعيد جدا بما أسمع و أعرف تلك النظرية بالطبع، لكن تلك هي المرة الأولى التي أسمع أنها في سبيلها للتطبيق مع حالة معينة. مريضتك سيكون لها فضل كبير علينا جميعا يا دكتور وليد".

إبتسم وليد وهو ينهي المكالمة و رفع عينيه فوقعت على صورة زفاف أبيه و أمه ووجد في ابتسامتهما المحفوظة بها منذ زمن معنى جديدا يراه لأول مرة. فقد شعر أنهما فرحان به ومتواصلان معه.

٣١

فتحت نجاة باب العنبر و ندهت على سنية.

«ياللا يا اختي، ما احنا ما وراناش غيرك! تعالي، إسم النبي حارسه عاوزك!»

جريت جمالات على نجاة وهي بتقلع هدومها وترميها ف الهوا.

«وانا، إشمعني انا؟"

«والنبي تتوكسي. إحنا ناقصينك!»

وصلت نجاة عند سنية و شدتها من إيدها و مشيت سنية معاها وهي خايفة من الألوان اللي طايرة ف الهوا، عشان إخلاص كانت بتزغرط و ام مجدي كانت بتصوت و نجاة كانت بتزعق بعلو صوتها.

خرجت من العنبر و هي مغمضة وما فتحتش اللا لما سمعت صوت الولد أبو لون أبيض بيلمع بيقول لنجاة تسيبها. فتحت سنية عينيها لقت نفسها واقفة على باب كبير وقدامه سلالم نازلة على الجنينة.

وقفت سنية واتخشبت. أصلها بقالها سنين ما نزلتش الجنينة ولا خرجت في الشمس. المرة الوحيدة اللي خرجت فيها كانت لما راحت في العربية اللي صوتها عالي، وحتى ساعتها كانت مغمضة و الدنيا سواد.

سمعت صوت الولد بيقولها بشويش.

«ما تخافيش يا سنية، أنا معاكي ومش حاسيبك أبدا"

فتحت عينيها شوية و خدت خطوة واحدة معاه على أول سلمة.

«على فين كده إن شاء الله؟"

٣٢

صاح الدكتور ناجي من داخل أجواء المستشفى حين شاهد وليد يخطو بسنية إلى الدنيا المفتوحة بدون أسوار.

تنهد وليد ليجمع هدوءا يعلم أنه سيحتاجه في اللحظات القادمة.

"فكرت في وسيلة أخرج بيها سنية من العزلة، أصلي وصلت لنقطة حيوية في العلاج"

«كلام فارغ وتخريف كالمعتاد. إتفضل أدخل يا دكتور ورجع المريضة عنبرها. إحنا مش فاتحينها وكالة"

شعر وليد بسنية وقد بدأ تأثير صياح ناجي يؤثر فيها، ووجد أن أفضل طريقة للتعامل مع ذلك المتحجر فكريا هي بصدمته كما يصدم مرضاه بجلسات الكهرباء.

«إمبارح كلمني الدكتور آدلر من أمريكا و كان مهتم جدا بحالة سنية، ولما حكيتله على اللي وصلتله، وافقني وشجعني أكمل بالطريقة اللي شايفها جايبة نتيجة، وأرجع له بالتطورات"

زم ناجي شفتيه سخطا وتساءل.

«آدلر؟ كلمك أنت؟"»

"أيوه يا دكتور، وقاللي أشكر حضرتك جدا علي تفهمك وتقديرك للأسلوب اللي باتبعه في علاج الحالة و إنه حيتصل بيك قريب عشان يعرف رأيك"

زام ناجي بحثا عن كلام يخرجه من جوفه، لكنه فشل في تلاحم ما يجول بخاطره من غضب وما يود أن يبديه من تفهم وتوافق.

«طبعا يا دكتور ناجي أنا حاتصل بالدكتور آدلر واقول له إن حضرتك اللي اقترحت إني أخرج بسنية من المستشفى في محاولة غير تقليدية للتواصل معاها، بعد ما نجحنا في الأسلوب المبدئي في العلاج"

«خلاص خلاص، لكن ما تتأخرش، دي عهده"

ودار ناجي على كعبه في حركة عسكرية متصلبة وعاد إلى مكتبه ثم أوصد بابه عليه كجدار يفصله عن مستشفاه والمرضى وكل ما يمثله له وليد من حداثة يكرهها.

أسرع وليد بسنية إلى سيارته وانطلق بها فرحا وهو لا يكاد يصدق أنه كسر حواجز الحبس واعتبر ذلك إيذانا من القدر بنجاحه في كسر قيود صمتها العتيق.

٣٣

نزلت سنية إيدها ولمست الميية، لقت الميية بتجري، إستغربت ورفعت إيدها لفوق، وبعدين نزلت إيدها ثاني وحركت صوابعها في الميية وحست إن الميية بتزغزغها.

نزلت إيدها زيادة كمان لحد ما الميية غطت إيدها كلها وبعدين غطت دراعها لحد كوعها، بس الولد أبو لون أبيض شدها بشويش و بصلها وابتسم.

«لأ يا سنية، كده تقعي في الماية"

بصت سنية لقدام لقت الميية كثيرة، كثيرة قوي، مغطية كل حتة حواليهم. إتبسطت قوي وحاست إنها ممكن تنام وترتاح. كومت جسمها كله على الدكة و غمضت عينيها.

***

سعد وليد ببداية التجربة. فها هو مع سنية في مركب شراعي في وسط النيل، وها هي قد أرخت جسدها ونامت وعلى وجهها ما يكاد يشبه الابتسامة.

تنهد وليد وسمع صوت أخيه الذي أتاه في الحلم "خدها ع البحر الأزرق"

فعلا، قد لا يكون النيل أزرقا لكنه حقق المراد.

نظر وليد إلى لمياء متسائلا في صمت، فهمت سؤاله و أجابته دون الحاجة لأن تسمعه.

«لما تصحا حنبدأ نجرب ونشوف الدو حتعمل معاها إيه"

إستكان وليد وقرر أن يستمتع برحلتهما النيلية. فما أحوجه إلى تلك الفترة من الهدوء، فما يجول بخاطره لا يقل تشابكا و ازدحاما عن شوارع وطرقات المدينة الصاخبة. وها هو النيل بهدوئه ودوامه يقدمان سكينة لا نكاد ندركها على الرغم من وجودها أمامنا طوال الوقت.

أخذه تفكيره إلى لمياء، كم من السنين عرفها؟ وكم من التفاصيل لا يعرفها عنها؟ دهش حين أدرك أن الجميع في حبس من نوع غريب. نغلق على أنفسنا الأبواب والجدران ثم نشكو من العزلة.

«تصوري إني ما اعرفش عنك حاجة خالص"

«حتعرف إيه؟ زميلتك في المدرسة اللي كنت بترزل عليها و تغش منها كبرت وبقت مزيكاتية"

ضحك وليد.

"لأ بجد. يعني العشر سنين دي حصل فيهم إيه؟"

تنهدت لمياء و نظرت إلى أفق النيل للحظة ثم تمتمت.

«إتجوزت واتطلقت"

نظر وليد إليها محاولا قراءة ما يجول برأسها. لم تخف عليه نظرة ألم سكنت عينيها وهي تعود إلى ذكريات من الواضح أنها حفرت بداخلها حزنا.

«عندك أولاد؟"

«كثير!»دهش وليد لكنه لمح بريق مزاح في عينيها تخطى ما كان بهما من ألم فضحك وشاركته الضحك.

«الطلبة؟"

«بالميات"

إستراح وليد وهو يرفع عينيه للنيل وسمح لقلبه أن يزرع بذرة دفء لوجود زميلة قديمة عرفته في يوم لم يكن فيه طبيبا واعدا ولا شابا وسيما، بل زميل دراسة خجولا له ما له من خبايا و أسرار لم يكن يقوى على البوح بها ولكنها لم تمنع أقرانه من التواصل معه.

تأوهت سنية في نومها فالتفت إليها وليد ولمياء في توقع لما سيأتي في اللحظات القادمة الحاسمة.

٣٤

فتحت سنية عينيها لقت قدامها الولد أبو لون أبيض بيلمع.

«أقعدي يا سنية"

قعدت سنية وهي باصة على الولد، بس عينيها سرحت وراه، ناحية الماية الكثير، وسرحت لفوق ناحية السما الزرقا.

حط الولد الورق قدامها وطلع ألوان كثير، كل الألوان اللي بتحبها.

البنت اللي معاه طلعت علبة فيها صوابع بيضا وسودا داست على واحد منهم.

نقت سنية اللون الأخضر وكل ما البنت تدوس على الزرار و تسمع سنية الصوت اللي طالع، ترسم خطوط باللون الأخضر، بالطول وبالعرض. البنت صاحبة الصندوق داست على زرار ثاني و زرار ثالث والأصوات بقت تطلع ورا بعض و سنية تنقي م الألوان اللي قدامها وترسم على الورق.

بعد شوية بدئت سنية ترسم دايرة ونازل منها خطين زي الإيدين، وجسم و خطين زي الرجلين، ودايرة ثانية صغيرة وليها نفس

الإيدين والرجلين. بس الرسمتين ما كانوش قد بعض. واحدة كانت أكبر من الثانية، واحدة ست كبيرة والثانية بنت صغيرة.

سنية لونت راس الست بلون واحد، ورسمت للبنت شعر طويل ولونت الورد في الفستان باللون الدهبي زي المرة اللي فاتت.

في وسط نوت المزيكا اللي كانت الست بتلعبها، دخّلت بشويش أول نوتة دو. قصيرة، سريعة، مستخبية وسط النوت الثانية. سنية ما خدتش بالها منها عشان كانت بترسم، وبعد شوية دخلت نوتة دو ثانية، أطول شوية، بس برده مستخبية، ومن غير ما تحس سنية، راحت مادة إيدها للقلم اللي لونه أحمر و مسكته. لما شافتها لميا لعبت دو مرة كمان، بصت لها سنية وراحت راسمة خط أحمر جنب البنت. لعبت لميا نغمات مختلفة، بس كل شوية تزود نغمة الدو وتطولها. وسنية ترسم بالقلم الأحمر خطوط حمرا كثير حوالين البنت وحوالين الست، كثير كثير وكإنها بتحبسهم جواها، ولميا ماشية معاها بتعللي الدو و تطولها و تغيرها وترجع لها.

في الآخر بدئت سنية إيدها تترعش وهي ماسكة اللون الأحمر وبتشخبط بيه في الصورة يمين وشمال. وليد بص للصورة لقاها

بقت عبارة عن خطوط حمرا قوية وتخينة محاوطة البنت والست، محاوطة سنية. الألم بان على وشها ولأول مرة نزلت دموعها تجرى وفتحت بقها وصرخت بعلو صوتها.

«آآآآآه!!»

٣٥

كفت لمياء عن العزف وأخذ وليد القلم الأحمر من سنية وهدهدها محاولا إستعادة هدوئها.

«خلاص يا سنية، خلاص. ما تخافيش"

أخرج من حقيبته حقنة مهدئة و حقنها بها فاستكانت بعد لحظة و ساعدها على التمدد على الدكة وظل متابعا لها حتى هدأت أنفاسها و أغمضت عينيها.

نظر وليد إلى لمياء فوجدها تبكي في صمت.

«مسكينة!»

هز وليد رأسه موافقا وهو يعلم أن جزء من حرفيته كطبيب هي اللا يتأثر بما يراه على مرضاه، لكن سنية كسرت ذلك الحاجز ووصلت إلى لب قلبه الذي عصره الألم والحزن عليها.

نظر إلى الورقة التي حفرت فيها سنية آلامها باحثا عن نقطة النور التي يتمناها لإجلاء ذلك الظلام الذي يغلف حالتها و سكونها. وفجأة تلاشى كل شيء من حوله، إلا تلك الصورة التي صارت صارخة بمكنونها. وصاح هامسا.

«دي نار"

«نار؟"

رفع وليد الورقة وحملق فيها جيدا.

«أيوه. نار محاوطاها هي والست اللي معاها!»

صمتت لمياء وهي تنظر إلى الرسم وتحاول تخيل مادار في ذهن سنية وهي تستجلب تلك الصورة من ذكرياتها المطموسة.

«يعني كانت في حريقة هي والست دي، وهربت منها؟"

نظر وليد إلى لمياء وقد صار كل شيء واضحا ومنطقيا.

«عشان كده ما بتحبش اللون الأحمر وبتخاف منه، وعشان كده بيتحب الميية و بتحطها على جسمها"

«بتهرب من النار"

«بتهرب من النار"

نظرا إلى سنية المستكينة على الدكة محملقة في لا شيء، ثم أكملت لمياء حل اللغز.

«الدو حسب نظرية اللون والموسيقى، لونها أحمر".

٣٦

عاد وليد إلى البيت وفي صدره أمل جديد. لقد وصل إلى أصل العقدة، أو على الأقل، أصل المشكلة. ألقى بجسده المرهق عصبيا على الأريكة و حملق في فضاء البيت.

تنامت إليه أصوات أمه وهو صغير.

«إطلع من المطبخ يا وليد، ما تقربش من البوتاجاز"

ضحكات إخويه حينما كانا مازالا جذورا تربطه بالحياة و تمتد به إلى أبيه في محبسه.

أغمض عينيه و أراح رأسه. الطمأنينة هي الشعور الذي غلف طفولته، على الرغم من الظروف التي كانت تحيط بهم. سكنت الطمأنينة في قلبه وهو طفل لأن أمه كانت هناك ولأن أخويه كانا معه يقاسمانه الدقائق و يملآن حياته صخبا وحبا.

ثم... فقدت.

أكلتها الحياة كما تأكل النار ما حولها. حولت طمأنينته إلى رماد أسود يغلف أيامه الحالية ويبحث فيه وليد عن مخرج عن طريق سنية.

أدرك في لحظة أن سنية ليست فقط مريضته ولكنها طفلة فقدت كل معاني الطمأنينة و حبست في خوف أحالها إلى صمت عاجز محفور في صخور حياتها الرتيبة في المستشفى.

فتح وليد عينيه و جلس معتدلا وقد صمم على كسر ذلك الجمود.

أمسك بهاتفه وطلب لمياء.

رفعت لمياء عينيها عن الكتاب و ابتسمت حين رأت إسم وليد على الشاشة.

«أيوه يا وليد"

«لميا، إنت مش ليكي قريب بيشتغل في الأهرام؟"

«آه عماد ابن خالتي، ليه؟"

«هو اللي حيوصلنا لحكاية سنية"

٣٧

"٢٥ سنة؟ ده كثير قوي!»

«يعني ما ينفعش؟"

«مش عارف"

نظر وليد إلى عماد و لم يعجبه. حاول جاهدا أن يخفي شعوره، ولكن الامتعاض تسلل إلى وجهه في لحظة، إختلست لمياء نظرة سريعة إليه ثم عاجلت عماد بسرعة قبل أن يلحظ.

«معلش يا عماد، برضه نحاول، أصل الموضوع مهم بجد"

نظر عماد إليها ثم إلى وليد الذي تماسك وابتسم إبتسامة مقتضبة، وتساءل عماد عما يعنيه ذلك الحادث وما أهميته؟ كيف يتصورون أن حادث حريق واحد سيكون له ذلك الصدى في الجريدة منذ عشرين عاما.

«باقولك إيه، ما تتعبناش معاك بقى. شوف لنا الموضوع بدل ما اكلم هالة واقولها الكورس بتاع كل يوم سبت بتروح فيه فين!»

حملق فيها عماد و نظر إلى وليد بسرعة ثم عاد إلى ابنة خالته التي تحولت في ثوان إلى عامل مهدد بخراب البيوت.

«إيه يا لمياء؟ يعني إيه أنا مش فاهم"

إبتسمت لمياء ولم تجبه، ولكن سكوتها أدى الغرض المطلوب.

رفع عماد سماعة التليفون ودق رقما داخليا.

«أيوه يا ابني، على بال ما أجيلك شوفلي صفحة الحوادث يوم...»

نظر إلى لمياء

«...كام؟"

فرد وليد بسرعة متحمسا.

« ٢٢ فبراير ١٩٩٠"

«٢٢ فبراير ١٩٩٠. أيوه اعرف إنه قديم قوي.. خلصني، ده شغل!»

إبتسمت لمياء إبتسامة لطيفة رقيقة كيدا في ابن خالتها.
«ميرسي يا عماد"
كتم عماد غيظه مرغما.

«ماشي"

٣٨

تشبثت عينا وليد ولمياء بشاشة المايكروفيلم وهم يحاولان ألا يفوتهما أي خبر في صفحة الحوادث التي أمامهما مهما كان صغيرا.

قرآ الصفحة مرة تلو مرة، تلو الأخرى ولكنهما لم يجدا أي خبر عن حريق. تنهد وليد وقد تبدد ما كان يظنه في يده من تفاصيل ستفك رباط الحالة. فالوصول إلى أحداث الماضي هو مفتاح الطريق لمستقبل سنية.

عقدت لمياء جبينها وهي تفكر.

«مش معقول ما يكونش الخبر نزل في الجرنال"

أطرق وليد للحظة ثم تمتم.

«يمكن نزل في جرنال ثاني؟"

«لأ. الأهرام هو الجرنال الأهم ولازم كان يغطي الأخبار اللي زي دي"

«بس مش موجود!»

تسلل اليأس إلى قلبه ودفع بالكرسي للخلف وهب واقفا فتبعته لمياء.

شكرا الموظف المسئول الذي مد يده ليطفئ الشاشة ويعود إلي ما كان يفعله قبل وصولهما.

وقفت لمياء فجأة و تشبثت بذراع وليد.

«إستنى! هي جتلكم يوم ٢٢؟"

«أيوة"

«يبقي مش معقول الحادثة حصلت في نفس اليوم! يعني أكيد فيه تحقيق و س وج وكده"

فكر وليد للحظة.

«أكيد، يبقي محتاجين جرايد...»

«كذا يوم قبلها"

عاد وليد ولمياء إلى الموظف الذي أنزعج لمقاطعته مرة أخرى و لكنه سلم أمره لله تحت إلحاح و إبتسامات لمياء وفتح لهما صفحات الحوادث لأيام ١٥ – ٢١ فبراير ١٩٩٠.

توالت الصفحات أمامهم في فحص متأن دقيق، وفجأة ظهر عنوان متصدرا حوادث يوم ١٧ فبراير ١٩٩٠.

«حريق هائل يلتهم شقة بأكملها. إنفجار أنبوبة غاز أشعل النيران وأطاح بجدار إحدى الغرف. الدفاع المدني يساعد في إخلاء العقار خوفا من امتداد النيران للشقق المجاورة.»

نظر وليد ولمياء إلى صورة العقار المنشورة و النيران تلتهمه بألسنتها بينما أحد جدران الدور الأرضي فتحت به طاقة بسبب الإنفجار.

إلتهما باعينهم الخبر المنشور و إن كان لم يزد على العنوان أية معلومة مفيدة سوى مكان الحادث. شارع النزهة، مصر الجديدة.

«يا عيني يا سنية"

نظر وليد للمياء فوجد أنها للمرة الثانية نزلت دموعها وهي تعيش في مخيلتها لحظات سنية الرهيبة. وشعر بكيانه يتعاطف معها ومع سنية.

٣٩

وطئت قدما لمياء أرض القسم بقوة و من ورائها عماد مرغما و وليد مبتسما. لم يكن عماد يريد أن يكمل المهمة ولكن مشواره الأسبوعي لشقة الفرفشة والأنس مع أصحابه، و الذي اكتشفته بالصدفة لمياء صار عاملا فعالا في يوم نحسه هذا. وكيف له أن يرفض لها طلبا؟

إقترب وليد منها هامسا.

«ما كنتش عارف إنك شريرة كده"

«يستاهل، ياما عمل فينا واحنا صغيرين!»

«الله ! ده انتِ ناوياله بقى"

ضحكت لمياء في اقتضاب ثم تبعت عماد الذي أسرع إلى مكتب المأمور طالبا مقابلته معرفا نفسه بأنه صحفي من جريدة الأهرام، وشارحا أنه بصدد كتابة موضوع عن أكثر الحوادث تكرارا على مدى السنوات الماضية وما إذا كان هناك نمط معين يمكن تتبعه.

تعجب المأمور و لكن لأهمية جريدة الأهرام لم يمانع في فتح الملفات القديمة لهم بعد أن قدم له عماد الدكتور وليد، أستاذ

الطب النفسي، والأستاذ لمياء أخصائية التعبير النمطي، وهو اللقب اللي لم يسأل المأمور عن معناه.

خرجوا جميعا من غرفة المأمور بعد أن عين لهم مجندا يأخذهم إلى مكمن الأحداث المحبوسة في زمن لم يعد له وجود.

تنحنح عماد وهو يريد أن يتخلص من تلك المهمة و من إبنة خالته المزعجة المهددة.

«أمشي أنا بقى، ورايا شغل في الجرنال"

«متشكر قوي يا أستاذ عماد، بجد من غيرك مش عارف كنا عملنا إيه"

«بس إياك يطمر!»

نظرت إليه لمياء نظرة تحد فتوتر عماد للحظة وابتسم وليد محاولا تخفيف الجو.

«هي طول عمرها كده؟ أنا فاكر في المدرسة كان هادية وطيبة!»

«كلهم كده يا دكتور، بس بيخبوا حقيقتهم! سلام"

ضحك المجند وقد راقته النكتة وإن كان لا يعرف كل أبعادها، ولكنها ولا شك ذكرته بإحدى الشخصيات النسائية في حياته.

أسرعت لمياء خلفه و من ورائها وليد وقد أحس أنه بنزوله ذلك الدرج الذي سيأخذه إلى مكمن تفاصيل التحقيقات القديمة، أشبه بمن يحفر باطن الأرض باحثا عن كنوز على وشك أن ترى النور وتجلى حقائق عن ماض لم يعد أحد يذكره.

تمتم في سره بدعاء و استجلب صورة أمه وصوتها وهي تدعو له أيام الامتحانات.

«ربنا ينصفك و ينورلك بصيرتك يا حبيبي".

أجل، فما يحتاجه الآن هو الإنصاف حتى يتمكن من إنصاف سنية المسكينة.

«البيه المأمور بيقوللك شوف طلباتهم إيه"

تقدمت لمياء خطوة، فلمس ذراعها وليد و سبقها إلى الجالس إلى مكتب متهالك عفن. فهو بخبرته بطبائع البشر يدرك أن تعامله هو هنا أفضل من لمياء، فمازالت شخوص مجتمعنا تُحجّم

السيدات و تضعهن في حيز قد يضيق بالخروج عنه بعض أنماط البشر.

«أنا دكتور وليد صبري، عاوز أشوف تحقيق حادث حريق حصل يوم ١٧ فبراير ١٩٩٠".

تحرك الموظف ببطئ متناه و كأنما يزيح عن كيانه كل السنوات التي تفصل ما بين ١٩٩٠ و ٢٠١٥. وبعد فترة من الزمن كاد وليد و لمياء يشيخان فيها، عاد بأوراق يغلفها ملف فقد لونه و صفته الأصلية وصار مقبرة للمعلومات والأوراق التي ترقد بداخله.

مدت لمياء يدها بسرعة تخطف الملف فحملق فيها الموظف و زاد غيظه.

«ما ينفعش الملف يطلع من هنا"

فطمأنه وليد بأنهما سيفحصان الورق و يعود إليه الملف صاغ سليم.

لم يجدا مكانا يجلسان فيه، فانثنيا في جلسة قرفصاء على الأرض في أحد أركان الغرفة المتربة وسط ذهول الموظف والمجند و إمتعاضهما الواضح.

ووسط خط متشابك الحروف مختلط الكلمات، بدأت تظهر تفاصيل الحادث الذي غير حياة سنية إلى الأبد.

في شقة في الدور الأرضي من إحدى عمارات شارع النزهة بمصر الجديدة، إنفجرت صباح أحد الأيام أنبوبة غاز فاشتعلت النيران في الشقة وفتحت من شدة الانفجار طاقة في أحد الجدران . وبوصول قوات الدفاع المدني ودخولهم إلى الشقة وجدوا جثة إمرأة في منتصف الخمسينات إتضح من التحقيق إنها كانت تسكن الشقة منذ سنوات طويلة ولكنها لا تختلط بالجيران ولا أحد منهم يعرف عنها أية تفاصيل.

وبالبحث والتقصي تم كشف هويتها وعرف أن أسمها عطيات أحمد عيسى عبد النبي من مركز الدلنجات بحيرة و كانت تسكن في ٩ شارع الترعة البولاقية بامبابة.

رفع وليد رأسه للمياء وعيناه تلمعان كطفل وجد لعبة كان يبحث عنها منذ زمن.

«أكيد ليها أهل أو قرايب حيعرفوا تفاصيل أكثر"

لم يستطع وليد أن يصبر لليوم التالي، بل أخذ لمياء و اتجه فورا إلى إمبابة باحثا عن الجزء القادم من اللغز. لم يصمت للحظة واحدة أثناء الرحلة من قسم الشرطة إلى شارع الترعة البولاقية، ولم يشعر حتى بنظرات لمياء التي كانت تشاركه فرحته، لا لشيء سوى أنها وجدت في وليد، ذلك الطفل اللطيف المبتسم الذي عاد إليها من سنوات حياتها الأولى البعيدة. شعرت معه أنها تتنفس بحرية، ببساطة. أزاحت عنها سنوات الزواج الثقيلة و شهور الطلاق المريرة. أنزلت عن كاهلها الشعور بالمرارة واليأس الذي كان يصاحبها والذي كانت تخبئه داخلها حتى عن نفسها. أصابتها فرحته و أشعل حماسه دفئا محببا كانت قد نسيت طعمه في غمرة ما مرت به مع من كان حبيبها في يوم مضى.

تنفست بحرية كانت تهفو إليها دون أن تدري. حرية طفل سعيد مرح، لا يقيم للدنيا ولا مشاكلها أي وزن.

إلتفت إليها وليد فجأة.

«إيه؟"

«إيه؟"

«بتضحكي علي إيه؟"

«أنا باضحك؟"

«آه. إيه؟ مش عاجبك كلامي؟"

لم تشأ أن تعرفه أنها لم تسمع منه أي حرف و أنها على الرغم من ذلك معجبة جدا به.

ألقت إليه بابتسامة أوسع ثم إستدارت لتسأل أحد المارين.

«لو سمحت، نمرة ٩ فين؟"

أشار الرجل إلى بيت من ٤ أدوار له شرفات تملأها بقايا حياة ساكنيه، من عفش مهزوم وملابس تئن من القدم، باستثناء شرفة واحدة تغرد فيها عصافير ترنو للحياة حتى وهي بداخل القفص.

تركا السيارة و سألا صاحب كشك بالقرب منه على شقة "الست عطيات"

قطب صاحب الكشك جبينه وتعجب أنهما يسألان عنها.

«دي ماتت من سنين، إيه اللي فكركم بيها؟"

نطق وليد بسرعة قبل أن يداهمه الرجل بتساؤلات أخرى.

فيه حد من قرايبها لسه هنا؟"

«آه، جمال إبن أختها في الشقة اللي في الدور الأخراني"

دلف وليد ولمياء إلى العمارة صعودا على السلم الضيق الذي لم ير يوما ضوء النهار، محاولين تحاشي قطط السلم و الشباشب المتروكة على أبواب الشقق.

دق وليد على الباب الخشبي و انتظرا.

٤٠

فتحت الباب طفلة صغيرة تمسك بقطة تشبهها بشكل ما وحملقت البنت والقطة فيهما متسائلتين بدون كلمات.

«الأستاذ جمال موجود؟"

لم تجب البنت وكأنما لم تفهم السؤال.

فتكلمت لمياء آمرة.

«روحي إندهي بابا"

إنطلقت البنت بسرعة و إلتفت وليد إلى لمياء.

«بابا؟"

«أمال يعني حيكون جوزها؟!!»

دخلت لمياء و جرت وليد وراءها حتى صارا داخل البيت الذي هو عبارة عن صالة صغيرة لا تحتوي سوى على كنبتين متلاصقتين و تليفزيون في المواجهة يستقبل القادم، و مائدة صغيرة وضعت ولا شك ليتعثر فيها كل من يحاول الوصول إلى الكنبتين.

على يمين الباب ظهرت الفتاة والقطة ومن ورائها من هما أصغر منها وقد تجمعوا كلهم على باب إحدى الغرف، ومن خلفهم خرج رجل في أواخر الأربعينات لم يتخل عن زي النوم بعد.

«أهلا وسهلا"

«يا أخ جمال، أنا الدكتور وليد صبري، ودي الأستاذة لمياء، جايين نسألك على الست عطيات. «

«عطيات مين؟"

«خالتك"

فتحت عينا جمال عن آخرهما وقد نفض عنه ما تبقي من النوم من أثر الدهشة.

«خالتي عطيات؟ دي ماتت من ييجي ٢٠ سنة. وانت تعرفوها منين؟ "

«عشان عندي في المستشفى..»

أمسكت لمياء بطرف الحديث فجأة وقد أحست أن كل الحقيقة قد تعيق ما يريدان الوصول إليه.

«عند الدكتور في المستشفى بحث مهم جدا حيقدمه في مؤتمر برة عن أثر الحوادث على العائلات اللي بيموتلهم ناس فجأة"

تنهد جمال و وأطرق برأسه في تذكر للماضي البعيد و ظهرت في عينيه نظرة أسى من الواضح أنها بدأت منذ سنوات ولم يستطع التخلص منها.

أشار إلى الكنبتين و قد جلس على إحداهما.

«طيب إتفضلوا. والله كانت حاجة صعب قوي. خالتي عطيات كانت حنينة وكانت بتقعد معانا في البيت هنا لو ماعندهاش شغل، أصلها لامؤاخذة كانت سايبة جوزها وربنا ما رزقها بولاد. فكانت بتيجي هنا وتقعد بالشهر و الشهرين. الله يرحمها. دي مربياني"

«هو إيه اللي حصل بالظبط؟"

«أبدا الأنبوبة فرقعت والبيت ولع"

«هي كانت لوحدها في البيت؟"

«لأ أكيد كانت دولت معاها"

تململ وليد من إستحواذ لمياء على مسار الحديث و أنقض متسائلا.

«مين دولت دي يا أستاذ جمال"

«دولت البنت العيانة اللي كانت خالتي قاعدة معاها. أصل لا مؤاخذة خالتي كانت مربية، ودولت كان عندها تخلف، لا بتتكلم ولا بتعمل حاجة. خالتي بقى كانت معاها من ساعة ما كان عمرها ييجي ٣ سنين لحد الحادثة"

«يعني دولت كانت معاها في البيت وقت الحادثة"

«أيوه ما هي ما كانتش بتخرج أبدا. فلازم كانت معاها. آلله يرحمهم"

«بس البوليس مالقاش غير ... أنا آسف يعني... جثة الست عطيات بس، يبقي دولت دي جثتها فين؟"

تعجب جمال و أطرق قليلا.

«الله أعلم، ما اعرفش"

تحمست لمياء وفكرت بعقل الأنثى في التفاصيل.

«إنت شفت دولت دي يا جمال؟"

«مـرة واحـدة روحـت لخـالتي وشـوفتها قاعـدة فـي الـركن علـى الكرسي، ولا نطقت ولا بصتلي حتى"

«كان شكلها إيه؟"

«شعرها إسود طويل، وحلوة. ولابسة فستان فيه رسمة كده دهبي"

فسأله وليد وهو يحاول تجميع قطع اللغز لتكتمل الصورة.

«بـس كـانوا عايشـين إزاي؟ يعنـي إيـه اللـي ودا السـت عطيـات لدولت وكانوا بيصرفوا منين؟"

«ماهي أم دولت كانت بتروح لهم مرة في الشهر"

كادت لمياء ووليد أن ينقضا على جمال.

«أمها؟"

«أيوة مش فاكر إسمها منـى.. منـال... ست هانم كده وصراحة كانت إيدها فرطة"

«مش فاكر إسمها يا جمال؟ ده مهم قوي..»

أكملت لمياء الجملة لتحفزه.

«عشان البحث اللي حيروح برة زي ما قلنالك.»

«آه آه.. فاهم طبعا. إستنوا كده...»

وقف جمال وإنزلق وسط تجمع الأطفال والسيدة التي ظهرت خلفهما على باب الغرفة و غاب فيها بضع دقائق ثم عاد وفي يده صورة قديمة تحمل سنوات النسيان في طياتها.

«الصورة دي فيها خالتي ودولت و مكتوب عليها كلام من ورا، يمكن يكون فيه إسم الست"

مد وليد يده بسرعة و نظر إلى ما كان من عمر سنية. نظرت نحوه من خلال الصورة طفلة صغيرة شاردة النظرة، نفس النظرة التي تحتوي على أفكار سنية الآن والتي طالما رآها وليد. وإلى جوارها عطيات، واقفة شامخة مبتسمة، ويدها تقبض في قوة حانية على يد الصغيرة وكأنما لتطمئنها وتذكرها أنها ستبقى إلى جوارها دائما.

قلب وليد الصورة فرأى جملة كتبت بالقلم الرصاص كاد الزمن يمحوها.

«دولت وعطيات، يوليو ١٩٨٠"

«ليلى.. الست ليلى المرصفي. أم دولت كان إسمها ليلى مرصفي"

رفع وليد ولمياء عيناهما عن الصورة و كست وجهيهما سعادة من وصل إلى خط النهاية في سباق مضن طويل.

«ليلى مرصفي؟ ما تعرفش ساكنة فين يا جمال؟"

«لا والله يا مدام. هي أصلها في الأول كانت ساكنة معاهم، بس إتجوزت واحد بيه باين سفير وسافرت معاه برة كثير، ولما رجعت سكنت بعيد عنهم. أصله لا مؤاخذة ما كانش يعرف حكاية دولت. خالتي قالتلي كده، ومن يومها وهي الله يرحمها قلبت على الست ليلى وزعلت منها قوي. كانت دايما تقوللي هو فيه حد يتبرى من ضناه؟ الله يرحمهم.»

خرجت لمياء ووليد من باب الشقة ووقفا على الدرج يستردا أنفاسهما وكأنما جاءا من مشوار بعيد ولكن نهايته صارت على مرمى البصر.

«لأ بقى يا لمياء، هي إيه ذلة؟؟"

٤١

«خلاص يا عماد. دي آخر حاجة حاطلبها منك"

«وانا إيش ضمني؟ ما يمكن كل شوية تيجي وتقرفيني بحاجة جديدة"

«أقرفك؟!!»

تدخل وليد بسرعة قبل أن تبدأ معركة الأقارب.

«أنا أضمنهالك يا أستاذ عماد. كلام رجالة. شوفلنا بس عنوان ليلي مرصفي و أوعدك مش حنطلب منك حاجة ثاني"

«ولا تجيب سيرة يوم السبت"

زفرت لمياء و قذفت بالجملة في وجه إبن خالتها.

«طيب حاضر. خلصنا يا عماد إحنا مش فاضيين!»

إبتسم وليد وهو لا يكاد يصدق تلك العلاقة الشائكة بين صديقته الوديعة الطيبة وإبن خالتها الذي يفجر فيها كل أصناف الشرور

في التعامل من العصبية إلى قلة الصبر إلى الابتزاز والتهديد. ولمح في نفسه تعطشا لدراسة ذلك التغير في شخصية الإنسان حسب من يتعامل معه. كيف لنا أن نكون طيبين و أشرار في نفس حيز النفس البشرية؟

طلب منهما عماد مهلة للغد حتى يصل إلى عنوان ليلى المرصفي وزوجها السفير و حين استحثته لمياء على الاسراع، أكد لها إنه يريد أن ينتهي بسرعة من تلك المهمة حتى يتخلص منها ومن تهديدها السافر.

سحب وليد لمياء من ذراعها و تركا مكتب عماد قبل أن ينتهي اللقاء بدموية و خسائر بشرية. و جلسا معا يشربان عصيرا في أحد المحلات في طريق العودة.

نظر وليد إلى لمياء صديقته الوديعة وتذكرها أيام الدراسة. كانت تجلس في معظم الأحيان بجوار الشباك، وتتطلع منه إلى السماء والأشجار بالخارج. وكثيرا ما عنفتها المدرسات على ذلك و لكنها أبدا لم تتنازل عن مكانها المطل علي الحرية و لم تتخلى عن نظرتها الحالمة المتأملة. وأدرك وليد الآن أنها ولا شك كانت

تتسمع لموسيقى الكون، الصادرة من ورق الشجر و الطيور و البشر والكائنات التي تسكن فراغه وتملأه في كل لحظة.

بينما كان هو يركز إهتمامه على إستيعاب كل ما ينطق به الأساتذة بحثا عن التفوق وسعيا وراء حلم من نوع آخر. حلما أكثر واقعية.

ترى هل صارت هي أيضا أكثر واقعية الآن؟

«سيبتوا بعض ليه؟"

فهمت لمياء السؤال دون أن تضطر إلى الاستفسار.

«زهقنا. مابقاش فيه كلام ولا حياة. بعد ٥ سنين، خلصت. كل واحد كان في وادي. مافيش حد فينا وحش، لكن إحنا مع بعض بقينا وحشين.»

هز وليد رأسه متفهما. أحيانا تلقي بنا الحياة في طريق واحد مع شخص، نتفاعل معه ونتقارب ثم، بعد مرور بعض الوقت، نكتشف أنه طريق زائف بلا أرض حقيقية.

«وإنت؟ إخواتك فين؟"

«كريم هاجر أمريكا من سنين وما اعرفش عنه حاجة. قطع علاقته بينا تماما. وهادي... هادي اتوفى"

«يا خبر! أنا آسفة يا وليد. إيه؟ حادثة؟"

«لأ"

مرت لحظة صمت يقرر فيها وليد مقدار ما سيكشف عنه من حياته للمياء.

«مخدرات"

صمتت لمياء وهي تشارك وليد ألمه و تتنفس تلك المساحة الجديدة من التقارب التي وصلا إليها.

«أنا وعلي كمان وصلنا لمرحلة كان هو بينام وقت ما انا باصحى وباخرج م البيت وقت ما هو بيصحى. مش عشان كنا بنتخانق، ما كناش بنتخانق. ما كناش حتى بنتكلم! حياة كلها برود. مش حياة. موت"

نظر إليها وليد و دق قلبه بتعاطف مع صديقته الرقيقة الحساسة. كيف لها أن تعيش صمتا وهي من تتنفس نغما.

مد يده وأمسك بيدها في رفق وابتسم.

رفعت عينيها إليه في لحظة دهشة ثم استكانت عيناها و ابتسمت، وتشاركا صمتا جديدا، صمتا به من التآنس ما يغني عن الكلام.

٤٢

دقق وليد النظر في الورقة التي بيده والمكتوب فيها عنوان ليلى المرصفى والدة سنية.

ثم رفع رأسه وهو يحاول أن يقرب المسافة بين ما يراه و سنية القابعة في ركنها بعنبر ٣٩ سيدات في مستشفى الخانكة.

فما رآه كان شيئا مبهرا. قصر من ٣ طوابق في أرقى مناطق التجمع الخامس، تفصله بوابة حديدية شامخة عن العالم الخارجي و يحيطه سور يمنع كل من تسول له نفسه الاقتراب. ومن خلال البوابة رأى القصر و الحديقة الشاسعة التي تحيط به وتكاد تنقله إلى عالم آخر غير ما نراه حول العاصمة المرهقة بساكنيها.

تردد وليد فعاجلته لمياء.

«إضرب الجرس"

«بصراحة مش مصدق إن العنوان مظبوط"

«التردد يا عزيزي أيبك!»

«إيه؟"

ضحكت لمياء.

«واه إسلاماه. إنت ما بتشوفش أفلام واللا إيه؟"

دق عماد الجرس الملاصق لشاشة مراقبة صغيرة وما هي اللا ثوان حتى سمع صوتا يسأل.

«أيوه؟"

«مدام ليلى مرصفي موجودة؟"

«مين حضرتك؟"

«دكتور وليد صبري"

صمت الصوت للحظات ثم سمعا صوت أزيز إليكتروني وفتحت البوابة الحديدية لتسمح لهما بالدخول.

داخل القصر تابعا خطوات خادم أسمر يرتدي بدلة شاهقة البياض، وخطا بهما عبر الصالة الرخامية ذات اللوحات الفنية الكبيرة إلى غرفة صالون تزينها ألوان مريحة هادئة تتنفس عبير حديقة ذات ورود وأزهار رسمت بحرفية وفن مخطط ومدروس.

أجلسهما الخادم على كنبة حريرية ثم خرج من الغرفة وتركهما لتأملاتهما حولها.

إحتوت الغرفة على دلائل وبصمات لدول عديدة تنم ولا شك على رحلات أصحابها في أركان العالم المختلفة.

همست لمياء وهي تميل على وليد.

«مافيش أحمر"

جال وليد بعينيه حول الغرفة و لاحظ مثلها إختفاء اللون الأحمر تماما. قد يكون لذلك دلالة نفسية، ولكنه لم يتسرع في الحكم على صاحبة المنزل.

دخلت ليلى مرصفي عليهما مبتسمة إبتسامة مرسومة ومحسوبة، أو هكذا خيل لوليد للوهلة الأولى.

«أهلا وسهلا"

«أهلا بحضرتك. أنا دكتور وليد صبري أخصائي الطب النفسي بمستشفى العباسية، ودي أستاذة لمياء عابد، أخصائية التعبير الموسيقى".

نظرت إليهما ليلى دون تعبير من أي نوع.

«أي خدمة؟"

تردد وليد للحظة أخرى ثم تذكر أبيك.

«إحنا جايين نكلم حضرتك عن دولت"

جمد وجه ليلى لثوان، ثم كسته تلك الابتسامة الدبلوماسية محسوبة الأركان و سألت.

«دولت؟"

«أيوة يا فندم، دولت بنت حضرتك"

تحركت عينا ليلى بسرعة تجاه الباب للتأكد أن الخادم لم يسمع ذلك التصريح، ثم عادت إلى وليد و لمياء وقد بدأ التوتر يكسو وجهها.

«بنتي دولت ماتت من زمان. إيه لزوم السؤال ده؟"

«ما ماتتش يا هانم. هي خرجت من البيت لما الحريقة بدئت، وفضلت ماشية في الشارع لحد ما أخدوها قسم البوليس و بعدين إتحولت على المستشفى عندنا"

حملقت فيه ليلى وتحول التوتر الذي كسا وجهها إلى غضب وعصبية تنحت أمامها الدبلوماسية التي تحلت بها منذ أول لحظات اللقاء.

«إيه الكلام الفارغ ده؟ إنتو جايين عاوزين إيه؟ فلوس؟ عاوزين فلوس؟"

«فلوس إيه يا مدام ليلى؟ أنا باقول لحضرتك إن سنية.. قصدي دولت نزيلة عندي في المستشفى، وإحنا فضلنا ورا حكايتها لحد ما وصلنا لحضرتك"

إندفعت ليلى واقفة رافضة ما تسمعه.

«باقوللك ماتت. بنتي ماتت! وعندي شهادة وفاة تثبت ده"

نطقت لمياء لأول مرة وقد آلمها الحكم على سنية بالموت.

«يا مدام ليلى دولت عايشة من أيام الحادثة في المستشفى، وكل اللي بنطلبه إن حضرتك تيجي تشوفيها"

صرخت ليلي في رفض تام.

«أشوف مين؟ أنا بنتي دولت ماتت في الحريقة و انتو أكيد نصابين. واتفضلوا إطلعوا برة"

أخرج وليد صورة سنية التي أخذها لها منذ بضعة أيام ومد يده بها إلى ليلى.

«طيب بصي حضرتك على الصورة دي. دي دولت دلوقتي.»

أشاحت ليلى بيده في عنف ملقية بالصورة إلى الأرض وهي تصرخ بشكل هستيري.

«مش عاوزة أشوف حاجة! برة! إطلعوا برة!»

كادت لمياء تأخذ خطوة في إتجاه ليلى ولكن وليد أمسك بيدها بيمنعها. والتفت إلى الباب ليفاجئ الجميع بشابة تقف على مدخل الغرفة وتتابع ما حدث بذهول.

صمتت ليلى فجأة و إنثنت الشابة لتلتقط الصورة من على الأرض وتحملق فيها في صمت مطبق وكأنه خارج المكان وخارج الزمان.

٤٣

جلست ليلى أمام زوجها وابنتها و الصورة على المائدة التي تفصلها عنهما.

نظر إليها زوجها ووجهه ينطق بالذهول وكأنه يراها لأول مرة في حياته. رفعت ليلى رأسها في مواجهتما وهي تتخذ موقع الدفاع عن نفسها.

«حتى البوليس أكد إنها ماتت. ما كانش سهل عليا، ما كانش سهل. بس إستحملت الألم، لوحدي. كنت أعمل إيه؟ ما كانش فيه حاجة في إيدي"

نطق زوجها محطما وقاره المكتسب من سنوات عمله.

«تعملي إيه؟ لأ يا هانم، إحنا اللي لازم نسأل الأول إنت عملت إيه. إزاي تخبي عليا حاجة زي دي؟ وليه؟"

«أنا وفرتلها أحسن عيشة. مش أحسن ما كنت أرميها في مصحة زي الناس ما بتعمل؟"

«أنا مش مصدق إنك بتدافعي عن موقفك! إنت كدبت عليا!!»

رفعت إبنتها رأسها لأول مرة و نظرت إلى أمها و خرج صوتها مخنوقا مهزوما.

«وعليا أنا كمان"

إلتفتت ليلى لابنتها وقد وجدت في تلك اللحظة فرصة للهجوم بعد أن سئمت من الدفاع.

«نعم؟ وانت مالك إنت كمان؟"

«مالي إزاي؟ أنا ليا أخت ما اعرفش حاجة عنها!»

«مش أخت! ما تقوليش أخت! هي لا حتعرفك ولا حتعرف تكلمك، ولا حتتعامل معاكي خالص. إذا كنت أنا نفسي ما عرفتش أتواصل معاها عمري"

هبت الفتاة واقفة تنفض الاتهامات عن تلك المسكينة التي لم ترها في حياتها ولكنها صارت مقتنعة الآن أنها تحتاج إلى من ينطق بدلا منها.

«يمكن. بس أنا دلوقتي متأكدة إن دي مش غلطتها هي"

إندفعت الفتاة هاربة من البرود الذي صار مسيطرا على المكان، تاركة خلفها زوجان خرسا، ولم يعودا يعرفان للحياة بينهما أي معنى.

٤٤

بصت سنية على الجنينة كلها بتدور على الولد أبو لون أبيض بيلمع. حست أن وقت طويل عدا و هو ما عداش. ما كانتش عارفة بالضبط الوقت ده يعني إيه ولا هو قد إيه، لكن حست إنها عاوزة تشوفه و قعدت عينيها تدور عليه وسط الناس اللي ماشية في الجنينة وحواليهم ألوان كثير. لكن ماحدش فيهم كان حواليه اللون الأبيض اللي هي نفسها تشوفه.

مرة واحدة طلعت تجري ناحيتها أم مجدي وهي بتصرخ.

«مش عاوزة تأكلي إبني ليه؟ عاوزاه يموت؟ عاوزاه يموت؟"

ما عرفتش سنية تعمل إيه. فضلت باصة لام مجدي واللون الأحمر بيزيد حواليها و هي بتقرب لها بسرعة، بسرعة.

كل اللي في العنبر سكتوا وبصوا عليهم، لكن ما حدش إتحرك. كلهم كانوا حاسين إن أم مجدي لما بتدور على أكل لابنها ماحدش يقدر يقرب منها.

هجمت علي سنية و قعدت تهزها من كتافها ورميتها لورا على السرير وهي يتزعق و عينيها بتطق شرار.

«مش حاسيبك تموتيه! إبني مش حتموتيه أنا اللي حاموتك! أنا حاموتك!!»

ركبت أم مجدي فوق صدر سنية ومسكتها من شعرها و خبطت راسها في الحيطة.

صرخت سنية. حست إن راسها بتتكسر!

شبكت أم مجدي إيديها على رقبة سنية و قعدت تدوس، وسنية ترفص. مش عارفة تشيلها من فوقيها. خافت، وفتحت بقها نفسها تقول حاجة، ما عرفتش. الهوا إتحشر جوة زورها،

والنفس إتحبس جوة صدرها. وحست أن اللون الأحمر اللي بتكرهه غطا الدنيا كلها، وبعدين بدأ تسْوَد.

٤٥

سمع وليد الصراخ الآتي من حماس نزيلات العنبر ثم صراخ الممرضات وهن يجرين نحو الباب في محاولة لفتحه سريعا.

أسرع بحدسه الإنساني قبل الطبي وقد شعر أن المستهدف سنية.

دخل إلى العنبر الذي صار كله صراخا وزغاريد و رقصا وبكاء.

وصل إلى سنية وأم مجدي قبل الأخريات اللاتي انشغلن بضرب النزيلات لإسكاتهن قبل الوصول إلى منبع الحماس الدموي.

أمسك بكتفي أم مجدي وشدها بعزم ولكن قبضتها على سنية لم تضعف.

حاول أن يفك قبضتها عن رقبة سنية التي انقطع عنها النفس ولكن أم مجدي صاحت في هياج.

«موتت إبني! موتت إبني!!»

صرخ وليد مناديا على سعد و سليمان اللذان أتيا بسرعة و جذبا أم مجدي من شعرها للخلف في عنف فانفلتت قبضتها تاركة أثار

أصابعها زرقاء شرسة على عنق المسكينة التي ضاعت منها مظاهر الحياة.

إنثنى وليد عليها في جزع متلمسا أي آثار لنبضات قلب خافق يعيدها إليه.

٤٦

جلست سلمى في غرفة وليد متوترة ترجف. لم تكن تعرف ما الذي أتى بها ولا ماذا ستقول لوليد أو لاختها التي لم ترها من قبل. وفوق ذلك، فهي لم تتعامل قط مع...مجنونة.

جفل جسمها من الكلمة، ليس خوفا ولكن كراهية لها. يالها من كلمة كريهة، خاصة وهي تغلف الانسانة التي تتمنى أن تنجح في التواصل معها.

فكم تخيلت في طفولتها وجود أخ أو أخت يشاركانها اللعب، ثم الأسرار و المشاعر التي احتوتها حين وصلت إلى ذلك السن الغض الذي تتفتح فيه القلوب و الآمال. ولكنها كانت دائمة وحيدة. أسفار والدها و طبيعة والدتها لم ترسم لها الطريق الذي طالما تمنته، ولم تهيء لها الدفئ الذي طالما طاقت إليه.

وها هي الآن على بعد خطوات و دقائق من رؤية أختها. إبتسمت سلمى و تنهدت وهي تنظر إلى الصورة التي أبقتها معها لتؤنس وحشتها الدائمة.

دخل وليد إلى الغرفة بسرعة و من أول لحظة شعرت سلمى أن شيئا ما قد حدث.

«تعالي معايا"

هبت واقفة دون أن تسأل. خشيت من السؤال، وخشيت أكثر من الإجابة.

دخل وليد تتبعه سلمى إلى غرفة فارغة إلا من فراش حديدي صدئ رقدت عليه إمرأة شاحبة الوجه، هزيلة كفرع شجرة لا تحمل من الخَضَار غير أقل القليل.

كان شعرها الأسود الطويل المزين ببياض فضي الخصلات ملقى حول وجهها، مفترشا الفراش من حوله و عيناها مغمضتان وكأنما هرباً من الدنيا وما فيها.

رفعت سلمى وجهها عن المرأة ونظرت إلى وليد الذي أجاب على سؤالها الذي لم تسأله بنظرة لم يصاحبها كلام.

إقتربت سلمى من سنية ووقفت تنظر إليها للحظات صامتة. وجدت في ثنايا ملامحها بعضا منها وبعضا من أمها. حتي يداها المسجتان إلى جانبها كانتا تشبهان يدي سلمى. مدت سلمى يدا مترددة ولمست إحداهما. ثم ربتت عليها في حنان وكادت دموعها تتقافز من عينيها. أختها. تلك هي أختها. إقتربت منها أكثر،

يشدها إليها شيء لم تكن تفهمه. حب من نوع غريب، كأنه محفور بداخلها دون أن تدري، دون أن تدركه أو تفهمه.

طاقت أن تحتضنتها و تقبلها. نظرت إلى وليد نظرة تساؤل فأجابها هامسا.

«سنية"

«سنية... سنية..»

إرتعشت جفون سنية ثم فتحتها.

٤٧

سمعت سنية صوت بينادي الإسم اللي كلهم بينادوها بيه. بس كان صوت عمرها ما سمعته قبل كده.

فتحت عينيها و بصت لقت وش واحدة حلوة أول مرة تشوفها، بس حواليها كان فيه نفس اللون الأبيض اللي بيلمع اللي بتحبه.

لما فتحت عينيها البنت إبتسمت وعينيها فرحت.

وحست سنية بإيد البنت بتطبطب على إيدها. ومن غير ما تحس لقت نفسها هي كمان بتبتسم. وطت عليها البنت ولمست بشفايفها قورة سنية. باستها. عمر ما حد باس سنية من ساعة ما جت هنا. وقبل كده... مش فاكرة إن حد باسها. البوسة كانت حلوة، دافية، حنينة. رفعت سنية إيدها و حطيتها على ظهر البنت. وغمضت عينيها ونامت.

نزلت دموع سلمى رغما عنها. ولم تكن تعرف أهي دموع فرح أو دمـوع حـزن. أخـذها وليـد إلـى غرفـة مكتبـه و أجلسـها لتهـدأ وتستوعب كل ما جرى.

كانت الأسئلة تنهمر في سيل لا يتوقف. كم مضى على سنية وهي على تلك الحالة؟

ألم تحاول أبدا أن تنطق؟

أليس هناك وسيلة لعلاجها؟

هل يمكن أن تترك ذلك المكان لتعيش معهم؟

لم يستغرب وليد الأسئلة ولا الحماس الذي كان يتقافز بسلمى من سؤال إلى سؤال باحثة عن سبيل إلي مستقبل سنية أو دولت.

تنهد وليد و هو يحاول أن يتماشى معها لتكتمل قصة سنية وتصل إلى فصلها الأخير.

«سنية. أنا أفضل إنها تفضل سنية. دولت ماتت في الحريقة، وسنية هي اللي عايشة دلوقتي"

«طيب ممكن تخرج معايا، تروح البيت؟"

لم يوافق وليد. فقد أدرك بخبرته الطبية أن سنية بحالتها الصحية الحالية، وتاريخ وجودها هنا في المستشفى لن تتأقلم مع تغيير الظروف التي تعيش فيها. ولذلك فقد عبر عن رأيه الطبي والشخصي أن سنية يجب أن تستمر في وجودها في المستشفى التي ألفتها لأكثر من عشرين سنة.

«بس ممكن تجيلها في أي وقت. واضح إنها ارتاحت لوجودك"

فرحت سلمى ورفعت وجهها بابتسامة لأول مرة ترسم على وجهها منذ أن عرفت ما تحويه حياة أمها من سر.

«أيوه. سنية حبتك، أو على الأقل إرتاحت لك ودي حاجة مش سهلة. أنا متأكد إنها حتفرح لو زرتيها"

«بس أنا نفسي أعرف حاجات أكثر عنها، ما دام هي مش حتقدر تكلمني"

أخرج وليد من مكتبه ملف سنية الذي صار متخما بالأوراق والتقارير التي كتبها طوال الشهور التي باشر فيها حالتها. و لمحت سلمى بين محتوياته تلك الأوراق التي سطرت فيها سنية

بـالألوان مشـاعرها. توقفـت سـلمى عنـدها وسـألت عـن معناهـا، وجلس وليد يشرح لها إرتباط الألوان بالموسيقى كما تفهمها سنية.

تحمست سلمى لما سمعت وقررت أن تحاول إقتحام عالم سنية المطبق عن طريق الألوان.

«أنا بالعب فلوت، ممكن أبقي آجي والعب لها مزيكا. ممكن دي تبقي اللغة اللي بيننا. المهم إنها تحس إنها ما بقيتش لوحدها.»

إبتسم وليد و عرف أن كل التعب والمجهود الذي بذل قد أتي بأمل جديد. أمل أن تجد سنية الحنان الذي سلبته منها الدنيا والظروف. وجدت سنية أخيرا حضن الأسرة مجتمعا في سلمى، أختها.

٤٨

أراح وليد جسده على الأريكة و نظر لصورة أمه. حدثتها دون كلمات. أخبرها بما وصلت إليه قصة سنية. شرح لها إرتياحه وسعادته بأنها وجدت أخيرا من يحنو عليها. صمت وجدانه لفترة ثم قص عليها حكايته مع لمياء. دق قلبه وهو يحكي لأمه في صمت عن مشاعره وعن وصوله إلى محطة أمان كان يفتقدها، ولم يجد في نفسه الجرأة للاعتراف بذلك حتى لنفسه.

سمع صوت أخيه الأصغر صادرا من أعماقه.

«يا أخي انت لسه حتحور.. قولها"

ضحك وليد. لطالما كان هادي هو المقدام الذي يأخذ الخطوة أولا ثم يفكر في تبعاتها حتى أخذ تلك الخطوة الأخيرة.

ولكن لا. لن يفكر وليد في ذلك الآن، بل سيفكر في لمياء. لمياء زميلة الطفولة و صديقة الحاضر وربما حبيبة المستقبل.

مد يده ليرفع هاتفه المحمول وضحك. في الأفلام كان يجب أن تطلبه هي الآن في صدفة يحبها كتاب السيناريو. إنتظر لبرهة، ربما تتحقق الصدفة. ولكنها لم تأت.

دق رقم لمياء ورن الهاتف لمدة أطول مما ينبغي. كاد وليد يغلق الخط وقد خبت اللحظة وفرحته بها ولكنه سمع صوت لمياء متعجلا وهي تلهث في الثواني التي سبقت الخطوة الأخيرة.

«مالك؟"

«جاية من المطبخ. حرقت الرز!»

إبتسم وليد، ربما يكون ذلك شيء آخر يشتركان فيه.

«أنا كمان متخصص"

حكى لها وليد عن لقاء سنية بسلمى و تشاركا في الفرحة به وأخذهما الحديث لمناطق أخري كثيرة، تهمه وتهمها ثم مناطق تهمهما معا.

لم يعد وليد وحيدا ولم تعد لمياء يائسة. فتحا معا طريقا جديدا به تواصل خاص مثلما فتحت سلمى طريقا جديدا بينها وبين سنية به تقارب لن يدركه غيرهما.

وجد كل منهم ما كان يبحث عنه حتى دون أن يدرك أنه يفتقده.

٤٩

البنت الحلوة أم لون أبيض بيلمع كان معاها عصاية بتنفخ فيها وتطلع أصوات حلوة برضه.

سنية قعدت ترسم الألوان مع كل صوت والبنت بتضحك مبسوطة وبتكلمها طول الوقت.

سنية كانت مش مركزة في الكلام، عشان مش مهم. المهم إن البنت الحلوة بتجيلها كثير و بيخلوها تطلع معاها في الجنينة.

وكمان بيتجيبلها الألوان والورق.

ومرة مدت سنية إيدها وبدئت ترسم بنت صغيرة و جنبها بنت أكبر ماسكة ف إيدها عصاية جنب بقها.

البنت دي كانت لابسة فستان أحمر.